قصة سقوط القدس في ايدي الجنود الاسرائيليين في حزيران ١٩٦٧ كما عاشها ورافقها وشاهدها مؤلف هذا الكتاب سليمان عبد الله شليفر .

اول صورة كاملة للمعارك التي دارت في القدس : من حي الى حي ، من منزل الى منزل تماماً كما حدثت. قصة الذين دافعوا عن القدس والذين ترددوا والذين تخاذلوا : بالاسماء والوقائع .

كان المؤلف ، وهو صحفي ومؤلف اميركي اعتنق الاسلام في شمال افريقيا مراسلا لمجلة « جون افريك » ومديراً لتحرير « اخبار فلسطين » الجريدة التي كانت تصدر بالانكليزية في القدس العربية عندما وقعت حرب حزيران . وقد شاهد المعارك من سطح منزله المطل على الحرم الشريف . كما انه اشترك في ترتيبات الدفاع العربية قبل وقوع حرب حزيران بأسابيع .

بعد سنة من حرب حزيران انتقل شليفر من القدس المحتلة الى عمان حيث تابع عمله الصحفي واكمل كتابة هذا المؤلف . وهو يعيش الآن في بيروت حيث يعمل مراسلا صحفياً .



سقوط القدس

جنديان اسرائيليان يتسلقان حاجز حديقة بيت المؤلف في القدس

سليمان عبدالله شليف

سقوط القدس

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت لبنان



الى اخوتنا واخواتنا في القدس القديمة

هذا الكتاب مختصر للكتاب الكامل الذي سيصدر في
اللغة الانكليزية بعنوان The Fall of Jerusalem
عن Monthly Review Press N. Y.

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٧١



المدينة

تتجلى روح القدس في حرمها الشريف ، وفي ما شهدته ــ بناء على ما جاء في التاريخ والتقاليد ــ من وجود ابراهيم فيها واسحق ويعقوب ومريم والمسيح ومحمد .

هذه هي الصخرة التي يقول علماء الانساب القدامى في الصحراء ان ملكيصادق ملك اليبوسيين تعبد عندها وقدم الضحايا ، والتي بنى داود فوقها مذبحه وأدخلها سليمان ضمن هيكله . هنا « باب الجنة » حيث ستجتمع أرواح المؤمنين يوم الحساب .

يقوم الحرم على قطعة أرض مساحتها أربعة وثلاثون فدانا حفرت في الصخر في جزئها الشمالي وسويت ، ورفعت من الجنوب بفعل الردم على مرّ الزمن وبفضل هيرودوس ، وتحميه أسوار عالية وأبواب ضخمة كان عبورها دوما طقسا دينيا أو على الاقل مناسبة جليلة .

هدم الرومان أسوار هيرودوس وأحالوها ركاما . أما البيزنطيون فقد جعلوا الحرم مكانا لطرح النفايات ، الى أن جاء الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٨ م. ومعه محاربون من الصحراء فأعاد الحرم مركزا للعبادة على طريقة الاسلام .

تكمن قوة القدس في انسجام هندستها المعمارية المدهشة ، وفي جمال حجارتها الضخمة الرمادية البسيطة التي ينعكس النور عنها ، لا في التفاصيل المتألقة المتكررة ولا في دقة الصنعة والالوان التي تميز المدن الاثرية الاخرى التي شيَّدتها الحضارة الاسلامية . وهكذا تستطيع بناية واحدة ، كقبة الصخرة ، بما يزينهـا من القاشاني ذي الالوان المتألقة الزرقاء والخضراء والفيروزية وبقبتها المذهبة أن تسيطر على مدينة بأسرها .

حين بنى الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان قبة الصخرة سنة ٦٦١ م. ، انما فعل ذلك لغاية سياسية هي ايجاد مكان مقدس جدير بمنافسة مكة المكرمة . ولكن الحرم فوق المناورات السياسية . انه حرم وكنز ، يضم جوامع ، واحواضا للوضوء ، ومدارس لتعليم القرآن ، ومحاكم ، وأروقة ، وحدائق متناسقة من شجـر السرو ، وقبورا ،

ومصاطب مكشوفة للصلاة ، وكلها تحيي بالنقوش او الاساطير الخالدة ذكرى الانبياء والاولياء والخلفاء والملوك والامراء .

ورد في كتاب الرحالة ابن بطوطة انه يقال ليس على وجه الارض جامع أكبر منه . ان الحرم الشريف يتألق في ضوء القمر كمدينة سماوية.

حين تسلم عمر بن الخطاب مدينة القدس من البطريرك البيزنطي منح سكانها المسيحيين الامان على أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم . وفي ذلك الوقت ايضا سمح المسلمون لليهود بالسكن والعبادة في القدس ، وكان البيزنطيون قد حرموهم دخولها الا في يوم واحد في السنة .

اتخذت القدس شكلها على مر القرون بالعديد من القباب العالية التي ترتفع بين المآذن وأبراج الكنائس ، وأخيرا بالسور الحجري الذي بناه حولها في القرن السادس عشر السلطان العثماني سليمان القانوني.

لا يدل على أصل هذه المدينة سوى أسواقها الضيقة المتعرجة... أسواق « ايليا كابيتولينا » المستعمرة التي بناها الرومان على انقاض مدينة هيرودوس ثم آلت من بعدهم الى البيزنطيين . والقدس ، كما يقول « كرسويل » من أفضل الامثلة الباقية لمدينة اسلامية من مدن العصور الوسطى .

يغني الاسرائيليون قائلين « القدس من ذهب » ، وهم يعنون بذلك ذهب قبة الصخرة . وفي القدس صور مغمورة بالطابع العربي كالإزقة المرصوفة بالحجارة ، والدور الكبيرة الملتصق بعضها ببعض بصورة جميلة ، وأسهم النور التي تخترق الكوى في سقوف البازارات ذات الاقواس ولولا ذلك لكانت معتمة ، وعمائم الرجال البيضاء وأثواب الفلاحات المطرزة ذات الاكمام الطويلة وهن يسرن في الاسواق حاملات على رؤوسهن سلال التين .

حتى الطائفة اليهودية المتدينة الصغيرة المقيمة بالقدس منذ القدم والتي تتكلم اللغة العربية ، وكانت تسكن المدينة القديمة قبل حرب ١٩٤٨ ، وهي عموما لا تكترث للمطامع الصهيونية بل تعارضها ، تمثل ايضا جزءا من روح المدينة الشرقي .

وحين احتل الصليبيون القدس ربطوا جيادهم في الحرم الشريف ، كما جعله الاسرائيليون محطة للسيارات .

لا أحد يرتضي لنفسه لقب المعتدي . واذا كان الاسرائيليون ينكرون حتما تهمة اغتصاب فلسطين ، الامر الذي يجعلهم معتدين مهما كانت تفاصيل اية معركة او حملة معينة ، فليس من الانصاف ان نعترف للصليبيين بحق أقل في المثالية .

كتب فولشر أف شارتر ، راعي بولدوين في بولون المتأكد ، كأي صهيوني معاصر ، من ديمومة الاستعمار الصهيوني والمقتنع بأن مكانه في الشرق الاوسط كحصن منيع ، فقال :

« هؤلاء الذين كانوا في الماضي ايطاليين وفرنسيين اقتلعوا من وطنهم وأصبحوا من أهل الجليل أو فلسطين . لقد نسينا البلاد التي ولدنا فيها . ومن يذكرها الان ؟ لا أحد يتكلم عنها . لكل واحد هنا الان بيته وخدمه ، وهو مطمئن كأنما له في الارض حق الوراثة منذ القدم . كل يوم يأتي أقرباء واصدقاء من الغرب وينضمون الينا ، لا يترددون في ترك كل شيء وراءهم » . (جيستا فرانكفوروم اهيروسالم) .

يستحيل الجدل في أصل عقائدي ، سواء أكان صليبيا او صهيونيا او مسلما أو عربيا ، اذ ان ما يمكن ادراكه هو الطريقة التي يستجيب بها الناس للحقائق . فالصليبيون ، في نظر معظم المسيحيين العرب وفي نظر المسلمين جميعا ، كانوا مجرد أوروبيين دخلاء ... افرنجا . ولا يزال اسم الافرنجي ملتصقا في الشرق الاوسط حتى يومنا هذا بكل اوروبي او بأي عربي يتأثر بالعادات الاوروبية .

ان الشعب الفلسطيني خليط عربي (أي سامي) من الاموريين والكنعانيين والحثيين واليبوسيين والفينيقيين والعبرانيين ، واخيرا من العرب المتأثرين بالطابع الفلسطيني والروماني والاغريقي والافرنجي ، عاشوا قرونا متنقلين من لغة سامية الى اخرى في سلسلة من التجارب الدينية والسياسية كروحانيين ويهود ومسيحيين ، واخيرا كمسلمين . واذا اتخذوا لغة القرآن في النهاية لغة لهم اتخذوا ايضا لهويتهم الحضارية العصرية اسم « العرب » .

كانت العملية ثقافيا مستمرة بصورة ثابتة ... تطوروا شرقيا أو آسيويا ، حتى في العصور الهلينية العظمى ، حين تميز هذا الثبات بمئات كثيرة من القرى الفلسطينية التي زرعت أرضها عدة آلاف من السنين سلسلة متواصلة من العائلات ، الى أن أفسد هذه العملية تدخل أرباب العقائد الغربية المسلح بغض النظر عن « مثاليتهم » الصليبية أو الصهيونية .

كان الزائرون القادمون قبل الحرب من اسرائيل الى الاردن يقولون ان الشرق الاوسط يبدأ من بوابة مندلبوم (الباب الجديد) التي كانت في وقت من الاوقات الصلة الوحيدة بين القدس الجديدة والقدس القديمة . وخلال اسبوعين ، بعد الحرب ، زالت هذه البوابة كما زالت معها جميع خطوط وقف اطلاق النار التي كانت تفصل ما بين قسمي المدينة . شقت طرق جديدة بين عشية وضحاها ، أما الطرق القديمة التي اهملت منذ نهاية الانتداب البريطاني فقد أصلحها الاسرائيليون بسرعة، وظهرت شارات الطرق بالعبرية الى جانب العربية والانجليزية على بلاطات جميلة وضعت فوق البلاطات الاردنية الاصلية في شوارع المدينة القديمة المتعرجة .

تلك كانت الايام الاولى من ضم المدينتين ، وكأنما كان الاسرائيليون

يبذلون كل ذلك الجهد المدني المذهل ليقنعوا أنفسهم والعرب وبقية العالم بأن « توحيد » القدس أكثر من حقيقة دائمة ، وان كل ما تبقى من العقدين الماضيين اللذين كانا استمرارا لآلاف السنين من التاريخ الشرقي بصرف النظر عن عهود الحكم السابقة ليس سوى ذكريات غامضة لحالات مصطنعة .

لكن طابع ما قبل الحرب لا يزال قائما . ذلك بأن « القطاعين » في الواقع ليسا سوى مدينة آسيوية على الرغم من ضواحيها الواسعة شبه الاستعمارية التي تنتسب الى القرن العشرين ، او « المدينة » الاوروبية ، التي ظلت منفصلة عشرين عاما .

ان مظاهر الاحتلال الحديث الموقت البغيض واضحة في القدس . من ذلك تعطيل الحياة السياسية الاصيلة ، والبحث عن أعوان معقولين ، ونفي الزعماء العرب الاحرار كرئيس البلدية وقاضي قضاة المحاكم الشرعية والوزراء الاردنيين السابقين والمعلمين ومنظمي نقابات العمال والزعماء القوميين والشيوعيين العرب ، واعتقال المشتبه بأن لهم علاقة بالمقاومة وسجنهم وتعذيبهم .

تملأ السجون وتفرغ ، ثم يعاد ملؤها ، والمحتل مدفوعا بمنطق القوة يزداد تورطا في القمع ، فان ألوفا من العرب في القدس وحدها خبروا على الاقل السجن الموقت خلال بضع سنوات فقط .

فكروا في باريس تحت الحكم الالماني خلال الحرب ، لقد احتلها الالمان وادارواا شؤونها (وتعرضت للارهاب) لكن لم تصبح المانية . او فكروا في سانتا دومينيجو في ايدي رجال البحرية (المرينز) ثم افهموا وضع الاحتضار الخاص الذي تعانيه القدس العربية .

حوادث الطرد من البيوت تعد بالآلاف ، ومئات المنازل العربية دمرت . ثلث الأراضي انتزعت ملكيتها حتى الان ، ولا بد من نزع ملكية أراض أخرى ما دامت المنازل تنشأ لألوف الاسرائيليين المستعدين للاستقرار في ما يدعى الان « القدس الشرقية » . « قوانين للسوق » مبهمة ومقاطعة مقصودة تهدم الاقتصاد المحلي . كل حاجات اسرائيل المعقولة ولوازمها التاريخية هي ، كما قال الرئيس زلمان شازار ، « جعل المدينة القديمة يهودية » .

بعد الحرب بفترة غير طويلة نشرت شركة سجائر اسرائيلية سلسلة من الاعلانات في الصفحة الأولى من جريدة « جيروزالم بوست » اليومية الاسرائيلية التي تصدر باللغة الانجليزية ، وكانت في تلك الاعلانات دعاية وطنية وصور نموذجية جميلة للمدينة القديمة العربية كالاسواق القديمة ، ومنظر من الجو للحرم الشريف ، وباب العمود ، وفوق كل صورة عبارة « هذه أرضكم » . ومن الواضح للعربي انه ليس المقصود بهذه العبارة .

ان سقوط القدس سنة ١٩٦٧ ، بعد مضي ٨٥٩ عاما على ظهور جيوش الصليبيين أول مرة أمام أسوار هذه المدينة المقدسة ، والاحتلال الذي تبع ذلك مثال مصغر لمصير فلسطين بأسرها ، وللصراع العربي الاسرائيلي بكامله . وهناك ما هو أكثر من ذلك !

ان الفكرة القائلة بأن الأوروبيين ، نظرا الى أي من حقوقهم في التفوق الروحي أو التاريخي او الثقافي ، لهم ما يبرر استعمار بقية العالم مباشرة (وبتلك الطريقة العنصرية الشديدة التي يبدو أنها تجري في أعماق الانسان الغربي) أصبحت طريقة مهملة بعد الحرب العالمية الثانية .

ثم ان آخر الفتوحات المعيبة أو الاستعمار في الهند ، ومصر ، وشمال افريقيا ، والامتيازات الصينية ، والهند الصينية ، واندونيسيا، وجزر الملايا ، والامارات التترية ، وجنوب افريقيا ، والكنغو ، انما كانت كلها من اعمال القرن التاسع عشر خاصة .

في نهاية الحرب العالمية الأولى احتاج المستعمرون الى الابهام والحيلة ، فلجأوا الى كلمات « كالانتداب » و « الوصاية » بدلا من الاعتراف بأي حق من حقوق الفتح المحرج . وحين جاءت ايطاليا ، في الثلاثينات ، بعشرين ألف مستعمر الى ليبيا ، ونبشت بعض الاعمدة الرومانية القديمة لتثبت « حقوقها التاريخية » فيها سخر العالم منها .

من في اوروبا اليوم ، سوى البرتغاليين الميؤوس منهم ، يجرؤ على التحدث عن عبء الرجل الابيض ، وعن ارسال المبشرين الى الوثنيين ، والسفن المسلحة لحماية المبشرين الذين يجلبون النور الى الادغال .

ان أكثر ما تبقى من الدول المستعمرة ثباتا وقوة هي جمهورية جنوب افريقيا التي تكرس نفسها لحكم الرجل الابيض العنصري تماما كاسرائيل في حكمها اليهودي المطلق ، وتأكدها الايديولوجي من حقوقها التاريخية كما وردت في التوراة (مسألة حام ونوح ومن يقطع الحطب وينقل الماء الى الآخر دوما) ، وكدافيد بن غوريون وهو يرعد في حديثه عن الوعد لابراهيم .

استطاع تيودور هرتزل ، مؤسس الصهيونية ، ان يكتب دون حرج في سنة ١٨٩٥ عن اعجابه بالصفة « العلمية » لاستعمار جنوب أفريقيا (الدولة اليهودية) . ومع ذلك فهناك فروق كبيرة في الوضع والاسلوب اللذين أتاحا للحركة الصهيونية التعالي على مثل تلك الصراحة . ذلك بأن رؤيا هرتزل المجردة كستها انسانية موقتة شبيهة بتلك المغامرة الاخرى الناجحة في القرن العشرين في بناء امبراطورية العالم الحر المعروف « بالنظام الامريكي الجديد » .

ليست القضية مجرد قضية بلاغة ، وهي بالتأكيد ليست مزاحا

ساخرا . اذ لا يمكن أن نقابل تكوين الافريقي الثقافي بتكوين اليهودي الاوروبي المضطهد ، المتحالف تحالفا واعيا مع الحركات الديمقراطية ، حتى مع الثورية منها . لم يكن في تجارب الافريقي ، كأوروبي ، ما يحجب به النزعة العنصرية الشديدة الملازمة للاستيطان الاستعماري . وهرتزل الذي تجنب اي احتكاك خطير بالحركة اللاسامية العنيفة الى ان جاءت قضية دريفوس استطاع عاطفيا ، على عكس اتباعه في أوروبا الشرقية ، ان يتجاهل ذلك التوتر الخلفي .

واجه البيض في جنوب افريقيا صعوبات من الاهالي ، وذلك أمر لا يمكن تجنبه في مجتمع قائم على استغلال الايدي الوطنية العاملة لا كالمجتمع الاسرائيلي القائم على انتزاع الارض من أهلها وتحويلهم الى لاجئين وعلى ثمار اعمالهم . (للاسرائيليين أطماع اقتصادية خاصة في المنطقة اذا تحققت كانت أكثر شمولا من مفهوم القرن التاسع عشر الضيق الخاص بالربح) .

ما عدا بقية من الفلسطينيين بقيت وراء الخطوط اليهودية في نهاية حرب ١٩٤٨ العربية الاسرائيلية ، اختفى الاهالي كعنصر يحسب له حسابه . وليس من المصادفات بالنسبة الى وجه الصهيونية القاسي الضاري ، الذي انزل البلاء بالفلسطينيين طوال عقود ، الا يظهر بوضوح سوى الان لقطاعات محدودة من الراي العام الغربي بعد حرب ١٩٦٧ عندما احتل الاسرائيليون الاجزاء الباقية من فلسطين (ضفة الاردن الغربية وغزة) ، فسلطوا انظار العالم على اهالي فلسطين .

في جنوب افريقيا رؤوس أموال انكليزية امريكية كبيرة ، ولاصحاب رؤوس الاموال هذه القدرة على التأكد من أن العاطفة المضادة للعنصرية في الغرب لن تؤدي الى اتخاذ اجراءات فعالة ضد جنوب أفريقيا . ولكن ليست في الغرب مجتمعات أفريقية كبيرة مترابطة ذات نفوذ تحركها بريتوريا ، وتحرك بدورها الرأي العام نيابة عن بريتوريا . لقد التزم جنوب افريقيا ، ايديولوجيا ، موقف الدفاع عشرات السنين .

ان حدود جنوب افريقيا ثابتة وقديمة ثبات البلد ذاته وقدمه . وكل ما تسعى له الجمهورية بصورة اساسية هو وضع حاجز بينها وبين الثورة الافريقية .

لكن القدس العربية ومرتفعات الجولان وغزة واجزاء من الضفة الغربية ميادين جديدة . انها تشكل عيادة لدراسة القضايا المتعلقة باستيطان استعماري من أخبث الانواع نجح الى درجة مكنته من تجنب وصمة الاستعمار (على الاقل في الغرب) في هذا العصر المقاوم للاستعمار . ففي فلسطين وحدها لا يزال في امكان الاحرار الغربيين أن

يهتفوا لرعاة البقر وهم يطلقون النار على الهنود او يدفعونهم الى الاراضي القاحلة .

آلى سكان القدس العربية على أنفسهم أن يقاوموا الاحتلال .

واذا كان معظم التجار الان مضطرون الى شراء البضائع من مصادر اسرائيلية الا أن أحدا منهم لم يشارك الاسرائيليين أو تخلى لهم عن محله على الرغم من العروض الملحة المغرية التي عرضها رجال الاعمال الاسرائيليون في الاشهر الاولى بعد الحرب . والمحامون الوطنيون مستمرون في مقاطعة المحاكم الاسرائيلية وان كانوا سرا يكلفون المحامين العرب في حيفا أن يدافعوا عن موكليهم .

المدارس الحكومية تعمل تحت ادارة اسرائيلية ، واللغة العبرية تدرس كلغة ثانية ، وكل من الطلاب وذويهم « يرحب » بذلك رغبة في استمرار التعليم . لكن في اليوم الاول بعد مرور عام واحد على سقوط القدس ، انتظم الالوف من طلاب المدارس وطالباتها العرب سرا وقاموا بمسيرة دامت ثلاثة أيام . وعلى الرغم من هجوم الشرطة عليهم ورشهم بالماء ثبت هؤلاء الاولاد الوقورون المنظمون ، وشقوا طريقهم حاملين الاكاليل الى أن وصلوا الى المقبرة الاسلامية خارج سور المدينة . وقد كانت الآية القرآنية المكتوبة على أشرطة الاكاليل واضحة : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

على أن معظم الناس قلما يجرؤون على شيء أكثر من الاصغاء الى اذاعات الفدائيين أو قفل حوانيتهم في أيام قليلة لها مغزى سياسي ، ويفعلون ذلك وهم خائفون كثيرا من الانتقام . ولكن لكثير من الشباب منظمات سرية ، وهم يتكلمون بلغة القنابل التي تنفجر احيانا في الساعات الاخيرة من الليل على الرغم من شبكة الامن الاسرائيلية الواسعة .

ارتفعت اسعار المعيشة كثيرا في القدس العربية حين ضمت الى النظام الاقتصادي الاسرائيلي الذي أجور العمال والضرائب فيه عالية نسبيا . وقد بقيت البنوك العربية مقفلة (وضعت أموالها في البنك الاسرائيلي المركزي) ، وباستثناء أسواق الخضار وسواها ساد الركود المراكز التجارية .

ان مئات ألوف الزائرين من العالمين العربي والاسلامي الذين كانوا يحجون في كل عام الى مساجد القدس وكنائسها العظيمة ، فيملأون الفنادق الكثيرة المتواضعة أو يستأجرون غرفا في بيوت خاصة ، ويبقون مدة للتسوق في الاسواق القديمة والمراكز التجارية العصرية خارج السور ، أصبحوا عاجزين عن القدوم الى القدس .

ان ما تبقى من دفق السياح السالف العهد قد انتقل الى ايدي

المقاولين الاسرائيليين . أما التراجمة وسائقو السيارات العرب ، ووكالات السفر ، وشركة الباصات السياحية ، والفنادق الفخمة في القدس العربية ، فقد أصبح زبائنهم قليلين . ان الركود ينتشر في حلقات واسعة تضم مخازن الاثريات والفنانين الـذين يصممون ويصنعون بالحفر في الخشب المسابح والصلبان .

ورجال القدس العربية الذين يعملون كمعلمين أو فنيين في المملكة العربية السعودية وليبيا ودول الخليج العربي الغنية بالبترول ، والذين يحتفظون بالجنسية الاردنية ويعودون الى بيوتهم في الصيف جالبين المال لعائلاتهم ، عليهم الان أن يطلبوا بواسطة أقربائهم اذنا بالدخول الى البلد « كزائرين لبيوتهم » ، آملين ان يحصلوا عليه بشروط قاسية محددة .

مئات الالوف من الاسرائيليين هرعوا الى المدينـة القديمة في الاسابيع القليلة الاولى بعد حرب حزيران (يونيو) ليشتروا الاطعمة المعلبة الامريكية والاوروبية ، واقلام الحبر الصينية ، ومصنوعـات هونج كونج واليابان البلاستيكية البسيطة . كذلك محصولات المزارع الوافرة الرخيصة الآتية من الضفة الغربية جذبت العديد من ربـات البيوت اليهوديات . ولكن هذا الازدهار انتهى بعد شهر ، والتجار العرب الذين لم تنفد بضائعهـم المستوردة دفعوا عليهـا الضريبة الاسرائيلية . ومنعت محاصيل الضفة الغربيـة الزراعية ومواشيها ومصنوعاتها الخشبية والصدفية من الدخول رأسا الى سوق القدس العربية التي اصبح عليها أن تتعامل بصورة مطلقة مـع الموزعـين الاسرائيليين وبالاسعار الاسرائيلية . ولما انتهت الصفقات الكبيرة عاد الاسرائيليون لا يهتمون بالعرب ، واحدثت البطالة ركودا في السوق المحلية .

يسمع المرء ، من حين الى آخر ، عن جار له خرج يبحث عن عمل في الكويت ، أو قطر ، أو أبو ظبي ، أما الاكثرية فباقية . واصحاب الحوانيت يتعلمون العبرية ليحسنوا ما بقي لديهم من اعمال تجارية ، والعمال العرب العاطلون يطوفون المدينة اليهودية بحثا عن العمل .

ان الاموال من عمان ... قروضا من الاصدقاء والاقارب ، ورواتب او هبات تدفعها الحكومة الاردنية ، وسحوبا من البنك ، يعود بها الى القدس مئات الاشخاص الذين يسمح لهم الاسرائيليون بعبور النهر في زيارات قصيرة ... هي الدخل غير المنظور الذي يساعد على بقاء القدس العربية حية .

والمراكز التجارية العصرية داخل أسوار المدينة التي كانت مخازن لبيع الادوات المنزلية أو الأثاث بالقطاعي ما لبثت أن حولت الى مقاه وحانات ومطاعم ونواد ليلية .

ويبدو أن الدور الاصلح للبقاء للقدس العربية ضمن الاقتصاد الاسرائيلي أن تكون حيا ليليا يخدم الشباب الاسرائيليين الذين يهرعون اليه ليلة الجمعة ويوم السبت حين تقفل المدن اليهودية . والقوادات البعيدات النظر في تل ابيب احضرن بنات الهوى الـى القدس العربية ليشتركن في المكاسب . انهن وبناتهن ، كجميع الطبقات الدنيا في الحياة الاسرائيلية ، هن بصورة دائمة يهوديات شرقيات . وهكذا قد تصبح المدينة القديمة حي خلاعة عنصرية مثل هفانا أو حتى هارلم في العصور القديمة .

لكن القدس تصفر لحن سافونارولا . فالوجود الثوري الذي هو غالبا : قنابل يدوية تنفجـر في الليل ، شاحنـة مملوءة بالمتفجـرات تحطم السوق في القدس الاسرائيلية ، وهجمات الفدائيين غير البعيدة عن المدينة ... تجعل المدينة القديمة ، من حيث العلاقات العامـة السيئة ، مركزا غير صالح للهو والخلاعة .

بيد أن بين العرب من لا يشاركون في الاستياء العام أو ليست لديهم على الاقل ارادة المقاومة السلبية . وكثيرون من فقراء المدينة المدقعين — عمال غير ماهرين كانوا غالبا عاطلين من العمل في العهد الاردني — وجدوا لهم أعمالا في المصانع أو مع ارباب العمل الاسرائيليين بأجور أعلى كثيرا مما كان ممكنا في الماضي . وقليلون من هؤلاء العمال يظلون قانعين ما لم تهددهم مباشرة موجات نزع ملكية الاراضي والطرد الفجائي .

من الامثلة الافضل لذلك صاحب فندق عربي كان عرضة للافلاس، فاستأجر مستشارا اسرائيليا أشار عليه بتحويل مطبخ الفندق الى مطبخ لاعداد الطعام اليهودي « الكوشر » ، فكوفىء في الحال بقدوم سبعة وثمانين شخصا من رؤساء المدارس والمعلمين جاءوا من المدارس العبرية في امريكا للزيارة .

ومثل آخر شخص يدعى مسوده من الخليل الذي يعتبر خير من يصنع الحمص بالطحينة في البلدة القديمة . بعد حرب حزيران أحضر احدهم موشيه دايان الـى مطعم مسوده الصغير الشرقـي ليتذوق حمصه . وقد نشرت الصحف اعجاب دايان بحمص مسوده، فبدأ مسوده عهدا جديدا . كثر الاقبال عليه ، وجاءه رأس مال من مصدر خفي ، وبرز مسوده كصاحب مطعم كبير عصري وافندي يرتدي الازياء الحديثة ويختال في الشوارع رافعا رأسه وواضعا حدا لكل جدال مع جيرانه بذكر اسم صديقه دايان . واشيع بين العرب سرا ان مسوده حصل على رخصة لحمل مسدس .

ادخلت شركة عربية يهودية رقصة « الستربتيز » ، أي الرقص العاري ، الى المدينة القديمة . وقد قال لي الشريك العربي بافتخار

عجيب ان ذلك كان « اول عرض من نوعه في القدس منذ الفي عام » .

كذلك مؤسس نادي الطيران الملكي الاردني حول فندقه في ضواحي القدس الذي كان افلاسه وشيكا الى ناد ريفي يعرض على مسرحه ، على حد قول الصحف المحلية ، « برامج عربية يهودية أنيقة فاضحة »، أي تمثيليات اسرائيلية بألبسة عربية فلاحية .

قال صاحب فندق عربي للصحف : « هناك قول غير قديم كثيرا وهو أن التجول في القدس ليلا ممنوع دائما . والقصد من ذلك انها مدينة ميتة ... ميتة تماما في الليل . الصلوات الكثيرة جدا وما شابهها » . فارتبك شريكه الاسرائيلي وفسر ذلك بقوله : « اعادة التوحيد تجديد للحيوية » .

عرفت القدس جماهير من الزوار الاجانب وأثرت منهم ... في عيد الفصح ، وعيد الميلاد ، ورمضان ، وموسم النبي موسى ، وعيد الاضحى ... مواكب لا تقل عن اي من الحشود الاسرائيلية التي تدفقت على المدينة منذ الحرب . ومع ذلك فان أكثر الناس سعيا وراء الملذات قد تفاهم مع هذه المدينة المتقشفة المتمسكة بتقاليدها ، ووفر عليها ذلك رحلات النزهة الى بيروت . ترونهم حاملين آلات التصوير يخترقون الشوارع ، حتى داخل الحرم خلال ساعات الزيارة القصيرة المنظمة ،متحولين الى حجاج بوقار العرب ، ومنظر رجال الدين الروم الارثوذكس بلحاهم الغزيرة ، والراهبات من الرهبنات الفرنسية والاسبانية والروسية ، والرهبان الفرنسيسكان في معاطفهم ، وقساوسة الارمن بقلانسهم السوداء المخيفة ، وشيوخ الشرع الاسلامي بعمائمهم ، يتجولون جميعا في جو المدينة المقدسة الروحي العاطر .

والآن منذ الضحى الى ما بعد الغروب تحتل هذه الشوارع الضيقة جماهير الاسرائيليين المتدافعين الذين لا يخيفهم وقار الاهالي . ترونهم ضجرين أو شديدي المرح ، البنات منهم يرتدين التنانير القصيرة والبنطلونات الضيقة ، والشباب يرتدون غالبا البنطلونات القصيرة . انهم يخلقون جوا شبيها بجو يوم عطلة في منتجع غربي ، أو على الاقل بأيام شنغهاي والدار البيضاء المنسية .

تغص المدينة القديمة ليلة الجمعة بالناس الا اذا وقع انفجار في المدينة اليهودية على أيدي رجال المقاومة العرب ، أو قام الفدائيون بغارة جريئة على ضاحية قريبة ، فأدى ذلك الى جو موقت من الحذر !

في الاحياء العصرية خارج الاسوار ، حيث فنادق السياح الكبرى ، يتجمع الاسرائيليون على أرصفة محلة غروب الشمس « صن ست ستريب » المضاءة « بالنيون » والتي بدأ انشاؤها في عهد الاحتلال .

وعندما تمتلىء الارصفة تتدفق الجماهير الى الشارع وتسير بين السيارات والدراجات النارية المزدحمة على مرأى من دوريات

الشرطة . ولا يرى هنا من العرب مساء الجمعة سوى سائقي سيارات الاجرة وموظفي النوادي الليلية .

ان سائقي سيارات الاجرة العرب الذي يعملون في الليل يتعرضون لسخرية الزبائن ، ويتهمون بالسرقة ويضربون (الامر الذي لم يسمع بمثله قبل الحرب) ، ويفسرون ذلك بأنه عمل سياسي غير مدركين ان هذا النوع من التعدي هو في أساسه عمل لئيم يعطي صورة قبيحة عن حياة المدن الغربية .

أما المقاهي الشرقية داخل السور (التي كان يؤمها في الماضي مدخنو النارجيلة فقط) فانها تزدحم بالشبان والشابات من الاسرائيليين الذين يأتون لشرب الشاي وغيره من الاصناف المحلية .

من أبرز خصائص الاحياء الاسلامية التقليدية الشعور المرهف بسكينة الليل ، وانعدام الضجيج والمشاجرات ، وذلك لان القرآن الكريم يحرم المشروبات الروحية . لكن الاسرائيليين يريدون شرب البيرة ، وهناك الان مقاه تقدم المرطبات في ساعات متأخرة من الليل ، وأصحابها مستعدون لتقديم البيرة . ان الحي العربي الغارق في النوم يوحي الى جماعات الشباب الاسرائيليين المتجولين بالغناء في ساعات متأخرة من أية ليلة من ليالي الاعياد الاسرائيلية ، وهكذا يتمزق الهدوء الذي كان يفرض على الناس في ما مضى الا يرفعوا اصواتهم فوق الهمس .

باستثناء بن غوريون الذي دعا الى هدم سور القدس الذي بناه السلطان سليمان العثماني ، ليضمن بصورة افضل «وحدة القطاعين»، فان النخبة المثقفة لا تسمح لها ضمائرها بمحو عظمة المدينة ، كما أن رئيس البلدية الاسرائيلي يدرك ضرورة الابقاء على نفائس الهندسة المعمارية الاسلامية . وهناك برامج كانت في قيد التنفيذ في العهد الاردني لتحسين مناظر المدينة قد وسعت الان كثيرا وأصبح جزء كبير من سور المدينة يضاء بالانوار في الليل أكثر من قبل .

لكن هناك فرق بين استجابات مدينة حية وبين جزء واهن تم احياؤه ، بين مجتمع يشارك ويدعى قيما طريفة في الحياة تتخذ صورة واقعية لنوع حضاري معين وبين تقدير الزائرين غير الودي لاحد المتاحف . ان هذه النظرة الفنية المهذبة الى الاشياء كلها تجريدي جدا فاقد للحيوية . فالفن عضوي يتلاءم مع اية مصادر ضمن مجتمع معين والا كان لا شيء . ان الفرق بين خريج الجامعة العبرية الجاد الذكي الذي اطلع على اصول شعارات المدينة القديمة التي تعود الى أيام المماليك وبين المراهق الاسرائيلي الضجر الجالس على سور الحرم الشريف يردد أغنية « عزباء في الليل » ، انما هو خيط رفيع يمتد من الاول الى الثاني .

ومما يدل على ما سيكون عليه الوضع في المستقبل أن مصوري الازياء الاسرائيليين يعرضون الان نماذجهم ليظهروا الفرق بينها وبين اللباس العربي العتيق ، كما يفعل « فوج » في اظهار أحدث الازياء في ظلال البارتيغون .

ان للمدينة الغربية أيضا صفة قديمة تجعلها تنظم نفسها على نسق يختلف عن نسق المدن الغربية . لكن هناك قانون فرض وقف الاعمال يوم السبت على مدينة تسودها الثقافة الاسلامية ولا يعرف اهلها السبت ، حيث كان الناس يقفلون حوانيتهم بحسب مشيئتهم او أهوائهم أو في أيام مختلفة اتفقت عليها نقابات أرباب الحرف . كان يوم الجمعة أكثر الايام حركة ، يجلب فيه الفلاحــون محاصيلهم من القرى ، ويشترون من السوق لوازمهم ، ثم ينضمون الى التجار والعمال لصلاة الجمعة في الاقصى مسجد المدينة الاكبر داخل الحرم . أما الان فان الحوانيت تغلق يوم الجمعة ، والسوق تتعطل ، وفي ما عدا الحي المسيحي تبدو المدينة ميتة .

في احياء السكن تبقى مخازن بيع المصنوعــات اليدوية الفنية وصالونات الحلاقة مفتوحة غالبا فترة طويلة بعد ان تكون الاسواق قد اغلقت عند الغروب . هنا تجلس جماعات صغيرة من الاصدقاء طوال المساء بحيث أصبحت هذه الحوانيت الصغيرة تنافس المقاهي كمراكز للحياة الاجتماعية في المدينة القديمة . واذا طالت السهرة فالامر بسيط ، ذلك بأن شرب القهوة والحديث كانا بالنسبة الى اصحاب هذه المحلات لا يقلان أهمية عن العمل .

ومع ذلك تظل المدينة وقورة لان العرب باقون فيها ، ولان حياة الجوار في الوقت ذاته منسجمة مع سوق كثيرة الضوضاء ووضــع حساس يسوده الشعور القديم بشعائر الادب والتعقل ، ولان القنابل والمتفجرات التي يلقيها الفدائيون العرب تبدد التخيلات اللطيفة وتؤكد من جديد الحقيقة العارية القائلة ان هذه المدينة ، وان كانت قد افتتحت، لا تزال عربية .

ينحدر من وسط المدينة وقلب السوق طريق الى الحرم الشريف ينتهي عند ما يعرف بباب السلسلة . وهناك قبل باب السلسلة قليلا باب آخر مزين بالنقوش الرائعة هو باب مدرسة اعدادية لمشايــخ الشرع الاسلامي تدعى المدرسة التنكيزية نسبة الى الامير تنكيز الذي بناها سنة ١٣٢٨ ، وكان عامل سلطان المماليك على دمشق وقد مات مسموما في الاسكندرية بعد اربعة عشر عاما من بنائها .

استعملت هذه المدرسة أيضا في اوقات مختلفة محكمة شرعية ومركزا للحكم . أما اساسها فيرتكز جزئيا على رواق قديم عبر وادي سلوان كان قد بني لتوسيع سور مدينة سالم الكنعانية الاصلية في عهد

داود وسليمان . وأما قبل بناء المدرسة التنكيزية فقد كانت في هذا المكان زاوية صوفية ، وجاء في التقاليد أن هذا الموضع كان الديوان الذي يلتئم فيه المجلس الاعلى عند قدماء اليهود (السانهدريم) في أيام السيد المسيح والقديس بولس .

ان القسم العلوي من هذا المبنى المملوكي القديم قائم فوق السور الغربي للحرم ، وقد أقمت فيه قبل الحرب في غرف تطل على هذا المعبد الاسلامي .

بعد الحرب بمدة غير طويلة جلا الجيش الاسرائيلي عن الحرم ، وأعاده الى السلطات الاسلامية التي أعادته الى النظام القديم الخاص بساعات الزيارة واللياقة والرسوم . لكن في آخر ذلك الصيف قــاد شلومو غورين ، حاخام الجيش الاسرائيلي السابق ، فريقا من طلابه الى الحرم ودخله من باب المغاربة ، وهو باب الحرم الجنوبي الشرقي ، وأقام صلاة داخل الحرم . حدث ذلك في التاسع من شهر آب بحسب الروزنامة العبرية ، أي اليوم الذي هدم فيه الهيكل . وبعد الصلاة قال الحاخام للصحافة الاسرائيلية انه سيعود على اساس قانوني ويبني كنيسا داخل الحرم ، فأحرج هذا الحاخام كثيرا الاوساط الاكثر تعقلا وحنكة في المجتمع الاسرائيلي ، وبعد هجوم عنيف في افتتاحيات الصحف تراجع الحاخام(١) .

لم ينته الامر مع رفيق الحاخام في السلاح . فبعد مرور ايام قليلة على هذا الحادث عاد الجيش الى الحرم بأمر من دايان وذلك لاخذ مفتاح باب المغاربة ووضع وحدة من رجال الامن داخل غرفة الباب لمنع دخول الاسرائيليين بصورة غير قانونية الى « منطقة جبل الهيكل » حيث للمسلمين وحدهم الحق ، بحسب قول الناطق العسكري ، في دخول الجوامع التي في المنطقة .

أزواج من شبان الاسرائيليين وبناتهم يتجولون في الحرم والذراع حول الخصر ، ويرتاحون تحت الشجر فترة رومانسية أو على حافة الحديقة ، وهو مكان مستور أكثر من جزيرة « كوني » أو « بريتون »

---

(١) وقعت عدة حوادث اخرى شبيهة لهذا الحادث داخل الحرم منذ ذلك الحين من قبل فئات متطرفة ، وفي الوقت ذاته كان علماء الاثار الاسرائيليون ينقبون في القاعدة الخارجية لسور الحرم الجنوبي (تماما تحت الموضع الذي اصاب فيه الزلزال المسجد الاقصى) وذلك بحثا عن الساحة الخارجية لهيكل هيرودوس . وقد جرت التنقيبات في أرض للاوقاف الاسلامية انتزعت ملكيتها دون موافقة السلطات الاسلامية . كل تلك الاعمال مضافا اليها النواحي الغريبة لحرق المسجد الاقصى في شهر آب (اغسطس) ١٩٦٨ زادت مخــاوف العرب من نوايا اسرائيل النهائية نحو الحرم الذي وصفته الاوساط الحاخامية في عــدة مناسبات بأنه « ملك يهودي » .

الا اذا صادف أن مر أحد الاهالي ونظر اليهم نظرة حانقة . أما مصطبة الصلاة بجوار الكأس (بركة الوضوء) فانها المكان المفضل لدى العائلات الاسرائيلية لقضاء نزهة قصيرة بينما الاولاد يلعبون حول المحراب المتجه نحو مكة المكرمة .

زارني في البيت شيخ عجوز لالقاء نظرة من بعيد ، فجلسنا وراء النافذة . قال الشيخ وهو يهز رأسه غاضبا : « ألوف الزوار من غير المسلمين كانوا يزوروننا قبل الحرب ، وكان كثيرون منهم يهودا قبل سنة ١٩٤٨ ، لكن احدا لم يتصرف مثل هذا التصرف . سأقول لك لماذا يفعل الاسرائيليون هذا . لاننا في قبضة أيديهم ، ولانهم يعتقدون أن الحرم الان منتزههم الوطني » .

ذكرني هذا بأسامة بن منقذ ، ذلك الفارس والشاعر العربي الذي زار الحرم في عهد الاحتلال الصليبي وكتب في مذكراته « عن تصرفاتهم وعقليتهم الغريبة » .

عاش أسامة نكبات ذلك العهد : الحضارات الصليبية ، الانشقاق والفتن وراء الخطوط الاسلامية ، الامراء الصغار ووزراءهم المستعدين للتعامل مع ملوك اللاتين استعدادهم للتعامل بعضهم مع بعض ، مؤامرات القصور ، ثورات الجيوش ، تماما كما وقع أمس في الشرق العربي .

ولد أسامة في السنة ذاتها التي دعا فيها البابا أوربان الى حملة صليبية ، وقد شاهد تلك الحملة وقاومها ، وقضى العمر في خدمة أسياده وسط دسائس العواصم الشرقية .

كتب اسامة مذكراته وسماها « كتاب الاعتبار » وهو في التسعين من عمره متقاعدا في دمشق في أيام السلطان صلاح الدين الايوبي رمز ذلك الوعي الجماهيري والشعور المتجدد بالاتحاد اللذين برزا من الفوضى التي سادت في أيام أسامة .

وحين توفي اسامة سنة ١١٨٨ م. كانت مملكة اللاتين في القدس قد استسلمت لصلاح الدين قبل ذلك بعام واحد .

جئت القدس منذ عام ، وكافحت في سبيل البقاء من اجل سلامها ، وعيني تنظر الى الماضي ... الى ماضيها العربي . كثيرا ما اسمع وانا عائد في اخر الليل الى بيتي من مكتب الصحيفة المحلية حيث اعمل طلقات البنادق المتبادلة على طول خطوط وقف اطلاق النار التي كانت تحيط بالمدينة العربية . وكنت أعلم بالحس المجرد وبما أقراه (وأكتبه) في الصحف اليومية أن الحرب والنكبة كامنتان دوما على الابواب مستعدتان للطغيان على المدينة وعلى نمط حياتنا في السنوات القليلة الماضية . لكن هناك أثر نفسي لتلك الحجارة المتجعدة التي أحبها ، ولتلك البيوت الواسعة المتلاصقة المبنية بها ، وللركائز التي تدعم سقوف

الازقة وتحول الشوارع الى انفاق بينما ترتفع بيوت القدس في الهواء . انها حالة نفسية مغرية يغذيها الامن في حياة الجوار التي اعتدتها .

والان تزيد الضرورة في حدة نظري الى الحاضر . ولو كان نظري حادا هكذا في ذلك الحين لعشت خائفا على سلام المدينة كل لحظة .

عجت القدس ، بعد سقوطها بأيام قليلة ، بمراسلي الصحف الاجانب الذين كانوا يستجوبون اي شخص يقف معهم ويكلمهم بلغة أوروبية . وأخيرا حشرني أحدهم وهو يهودي صهيوني من تورنتو .

كانت قد مرت بضعة ايام فقط منذ أن شاهدت قنابل النابالم تتساقط على المواقع الاردنية قرب جبل سكوبوس ، واكتشفت زوجتي أن اعز صديقة لها في القدس قتلت باحدى تلك القنابل التي ذكرت الصحف انها لم تلق أبدا على المدنيين داخل سور المدينة القديمة . نحن مسلمان ، وواضح اننا أجنبيان « مؤيدان للعرب » ، ولم يسمح لنا بالبقاء في أرض محتلة الا بتسامح من المحتلين . وقد التجأت الى الدبلوماسية الشخصية لاتجنب الغش أو ضياع حق الاقامة .

بيد ان المراسل تجاهل السياسة بدهاء ، وتمسك باسم عائلتي فسألني ما اذا كنت من اصل يهودي ، وان كنت فلماذا أصبحت مسلما . فأجبته انني كنت قبل سنين ملحدا . واذ كنت بعيدا عن التفكير في الدين ، فقد استبدت بي فكرة الاصول وجلال السامية وغوامضها ، وتمسكت بذلك كشيء استند اليه . ثم انني ، قبل هذه الحرب بخمس سنوات ، زرت شمال افريقيا واكتشفت في الفكر العربي — الاسلامي ومواقفه جوهر السامية ، فكانت هذه الروح وما تطلعنا عليه من نتاج حضارة دينية محتضرة ، هما بداية ذلك .

كل طاقة من طاقات الحس بذلتها خلال تلك الاشهر من التحمس التي قضيتها في طنجة وفاس ومراكش ومكناس أثرت في نفسي ، كما أثرت في الخطوط الجميلة والسلام النفسي في المدن القديمة التي تقسم النهار بحسب اوقات الصلاة وتعدد الساعات ، ونافورة المرمر الذي يلتقط اشعة الشمس عند الغروب فتتلألأ ثم تختفي في الظل ككل مادية تختفي في الابدية ، والرجال والنساء من كل لون يمشون في الشوارع الهادئة كاخوة واخوات دون اهتمام بعالم آخر منصرف الى المظاهر الخارجية ... كل هذه الاحاسيس وكثير غيرها قادتني الى الاسلام .

كان علي أن أوفر على ذلك الصحافي من تورنتو في ذلك اليوم كل هذه الاعتبارات والمقاييس الشخصية وهو واقف في شارع صلاح الدين خارج سور المدينة بين حطام الزجاج والنفايات . انها اعتبارات ومقاييس قد يجدها العربي المعاصر الثائر « خيالا بلا أمل » ، كما قد يجدها الاسرائيلي ايضا .

ليس هناك برهان أقدمه ضد مثل هذا الحكم . أعرف أنني قد ازددت قربا من تلك النقطة التي لا ينتظر فيها أحد شيئا من الحلـــول السياسية ، أو بالاحرى ان كل ما همني بصورة أكثر مباشرة لم يكن من المنتظر حله في هذا الشرق العربي بأعمال سياسية « دنيوية » .

وكأني عدت بالفكر الى ابن خلدون ، متنقلا كمكوك الحياكة بين امير وآخر ، فوجدت أن ما تبقى لي على المستوى السياسي هو الايمان بالذكاء ، والبحث عنه ، وتكريمه ، وعرضه على الاخرين ، وتمكين اولئك الذين يرون تحقيق أفضل أمانيهم ضمن النصوص السياسية الضيقة فقط التي حددها الغرب طوال مئات السنين المـــاضية من الاهتمام يوما ما بأهداف أساسية أخرى .

بيد أننا الان مرتبطون جميعا ـ انا والصحافي الصهيوني والثائر العربي ـ بسقوط القدس . وفي ما عدا مثل هذه الاعتبارات الشخصية، فمادة البحث محددة ، ومن المستحسن ان يتكلم احد عنها .

آب ـ اغسطس ـ ١٩٦٨

دلائل

يدور التاريخ أحيانا أمام أنظارنا ليطلعنا على أمور على غاية من البساطة أو شخصية دون أن ينبئنا عن معركة حربية حاسمة او تظاهرة اجماعية ضخمة أو تعديل فجائي في الراي عند التصويت او الانتخاب ، لذلك نفقد المغزى . اني افكر في تروتسكي كمـؤرخ وفي ملاحظته ان الثورة انتصرت عندما احد الخيالة القوزاق ترك عاملا يتلوى بين قوائم جواده ويفلت منه . وفي القدس دلّ حادثان غامضان على قرب اندلاع حرب حزيران لكن حل هذا اللغز جاء بعد مدة طويلة .

في خريف ١٩٦٦ وصل المحامي الافرنسي جاك منصور فرغاس ـ الذي سبـق ان دافع في باريس عن احـد الثوار الجزائريـين ـ الـى القدس ومنها ذهب الـى اسرائيل خارجا من بوابة ماندلبوم . وفرغاس شخص معروف في الاوساط العربية المثقفة المدركة التي تتكلم الفرنسية ، وزيارته كانت اعتيادية ، علم الناس بها واشير اليها في الصحافة الاردنية. وكان قبل مجيئه بمدة وجيزة قد تزوج جميلة بو حيرد بطلة الثورة الجزائرية .

لكن مكتب الصحافة الرسمي الذي يعالج امثـال هذه الامور لم يعلم جريدتي بقدوم فرغاس ومغادرته السريعة للقدس . ولم اعلم أنا بذلك الا في اليوم التالي من الجريدة الاسرائيلية التي تصدر باللغة الانكليزية (والتي كنا نتسلمها عند بوابة مندلبوم بالمبادلة مع جريدتنا) فانفعلت جـدا . كنت سابقا اجتمعت بفرغاس في مدينة الجزائر اثر الثورة وكـان يحرر الجريدة الاسبوعية « الثورة الافريقيـة » التـي انشأها الثوار ، ومن بعد في باريس على أثر انفصاله عن بن بيلا وبدئه اصدار جريدته القصيرة الاجل « الثورة : افريقيـا ـ آسيا ـ اميركا اللاتينية » . كان فرغاس قد عاد الى مدينة الجزائر عقب الانقلاب الذي قام به بومدين وبحسب وكالات الانباء كان قد اعتنـق الاسلام وكنت انتظر الفرصة للاجتماع به والتحدث اليه .

تجاهلت السلطات الرسمية زيارة فرغاس لانه كان في طريقه الى اسرائيل ليدافع عن محمود بكر حجازي وهو لاجىء فلسطيني في الثامنة

والعشرين (كانت والدته تعيش في مخيم قرب نابلس) كان قد اسر في ١٨ كانون الثاني ١٩٦٥ بصفته منتميا الى منظمة فتح . وكان عدم الاكتراث من قبل السلطات الاردنية أمرا معقولا . ولو علم أحد الفدائيين الذين في السجون بوجود فرغاس في المنطقة لطلب منه ان يدافع عنه . واستطعت أن أتتبع أخبار القضية من مطالعتي للاخبار في الصحف الاسرائيلية ومن برقيات الوكالات أحيانا .

كانت دورية اسرائيلية قد اعترضت طريق الوحدة التي كان حجازي يعمل معها وبعد التصادم جرح حجازي واخذ أسيرا . وأبقت السلطات الاسرائيلية الامر مكتوما اربعة أشهر ، ثم في حزيران قدم الى محكمة عسكرية بموجب « قانون الطوارىء » الذي يعود الى الانتداب البريطاني والذي كان المحامون اليهود الذين أصبحوا من بعد وزراء عدل يندددون به على انه « فاشستي » و« أسوأ من الاجراءات النازية » .

حكمت المحكمة على حجازي بالاعدام مستندة الى أربعة اتهامات: استعمال السلاح ضد قوى السلاح ، التسرب الى اسرائيل ، حمله متفجرات، واعمال تخريبية. وبما أن اسرائيل لم تطبق قط على الاسرى الفدائيين العرب (ولو كانوا يرتدون البزات العسكرية) اتفاقيات جنيف فكان ذلك اول حكم بالاعدام من نوعه . وأحدثت المحاكمة هياجا وكان من الواجب ان تتخذ كدليل على خطورة تحدي فتح القوى العسكرية الاسرائيلية بعد مرور خمسة أشهر على غارات الفدائيين .

وكان حجازي قد طلب محاميا عربيا شهيرا قبل المحاكمة لكن المحكمة عينت محاميا اسرائيليا للدفاع عنه . واستأنف المحامي الحكم وبعد ثلاثة اسابيع نقضته محكمة عسكرية عليا على أساس ان حجازي متهم بموجب القانون الاسرائيلي وهو لم يمنح الفرصة التي تمنح لشخص متهم بجناية كبرى تستوجب الحكم بالاعدام ، ليوكل محاميا اجنبيا تحت ظروف خاصة ، وهو القانون نفسه الذي مكن ايخمان من توكيل محام من الخارج للدفاع عنه .

وفي ذلك الوقت قدم الى المحاكمة في دمشق بتهمة الجاسوسية رجل ينتمي الى دائرة الاستخبارات الاسرائيلية يدعى ايلي كوهن وكان يهوديا مصريا يعيش في اسرائيل ويتكلم العربية . هيأته دائرة الاستخبارات ليصبح كأنه عربي مسلم صميم وعلمته مراسم الصلاة الاسلامية الاساسية وارسلته الى اميركا اللاتينية للعمل بين الجاليات العربية مدة وجيزة . ثم عاد الى سوريا بصفته مهاجرا وطنيا ومعه الملايين من الدولارات فنفذ في سرعة الى الاوساط السياسية العليا .

ولما انكشف أمر كوهن ، وبالتالي حوكم واعدم دون السماح له باستدعاء محامييه الفرنسيين، أصبحت حقوق حجازي الشرعية مستندا ثمينا لدى الدعاية المناهضة للقضية العربية فرحبت الصحافة الاسرائيلية

بقرار المحكمة العليا بصفته مثالا لكرم الاخلاق واللياقة عند اسرائيل .

لكن تكليف محام عربي اجنبي كما طلب حجازي خلق مشكلة للدول العربية التي كانت كاسرائيل ملتزمة بقمع حركة فتح ، ومن جهة اخرى لم يكن في استطاعة سوريا والجزائر والكويت ارسال أي محام الى محكمة اسرائيلية لانها بذلك تظهر كأنها اعترفت بواقع وجود الدولة الصهيونية . وهنا ، فرغاس حامل جواز سفر فرنسي ، تسلم الدعوى وزار عائلة حجازي في الاردن . وبعد موافقتها ذهب الى اسرائيل حيث قابل حجازي الذي كلفه حالا التوكل عنه .

ذكرت الصحافة الاسرائيلية عن فرغاس انه رجل مهم ذو شهرة موصومة بالشبهات . لكن الجو تبدل في سرعة لما سأله صحافي محلي هل كانت سوريا في مثل هذه الظروف تسمح لمحام يهودي بأن يأتي الى سوريا للدفاع عن كوهن (فرغاس كان وكيلا عن عربي) ، أجابه فرغاس ان القضيتين ليستا مماثلتين لان كوهن كان عاملا اسرائيليا دخل بلدا عربيا بجواز مزيف وقصده التجسس ، ثم لا توجد اتفاقات دولية تحمي الجواسيس . أما حجازي بالعكس فكان جنديا أسر وسلاحه في يده اثر معركة مكشوفة وفي بلده فلسطين ، ومحاربا يحميه اتفاق جنيف .

وأبدى فرغاس ايضا ملاحظة هي أنه عدا المستندات التي صدرت عن وزارة المستعمرات البريطانية فان الادعاء الوحيد للشرعية الذي استطاعت اسرائيل أن تستند اليه هو قرار الجمعية العمومية للامم المتحدة عن التجزئة والذي حدد المنطقة التي أسر فيها حجازي بأنها جزء من دولة عربية .

وبناء عليه فان الدفاع عن حجازي سيرتكز على مستوى سياسي بصفته مقاتلا في سبيل الحرية كالمجاهد الجزائري او كالجندي في جبهة التحرير الفيتنامية . وأعلن فرغاس انه بعد عودته مع زميليه (محاميين من مالي والسنغال) سيعرض قضية فلسطين بكاملها خلال المحاكمة كأساس للدفاع . وأشار أيضا الى أن اسرائيل وقعت اربعة اتفاقات لوقف اطلاق النار في ١٩٤٨ — ١٩٤٩ مع سوريا والاردن ولبنان ومصر ، لكنها لم توقع أي اتفاق مع الفلسطينيين .

وأجابت اسرائيل وهي تحت تأثير الصدمة : استعراض لفلسطين، اتفاقات جنيف ، محاميان من مالي والسنغال . . . القضية في مجملها تهدد بأن تصبح فضيحة دولية — أن من الواضح ان فرغاس رجل مشاغب دفعت له منظمة التحرير الفلسطينية المال ليستثمر اللياقة الاسرائيلية ويلقي خطبا سياسية .

وناقشت جريدة تل أبيب اليومية الرصينة الموضوع قائلة (وبقية الصحف اقتطفت قولها) لو ان فرغاس مخلص حقيقة ومهتم بحجازي

لترك مطالعته السياسية ودافع على اساس الظروف المخففة ــ أي ان حجازي ضلل وأغري ليفعل ما فعل وهو نادم على ما فعل .

ومرت اسابيع اثر ذهاب فرغاس وطلب حجازي منه ان يتوكل عنه . وفي نبأ نشرته « ذي بالستين بوست » ان الطلب لبث في الوزارة في قيد الدرس بالنظر الىتصريحات فرغاس الجنونية المسعورةالمنشورة في الصحف ضد اسرائيل والدالة على أن قصده ان يستغل المحاكمة لأغراض سياسية . وما نقله فرغاس هو أنه ادخل في القضية عنصرا يسترعي الاهتمام الدولي والآن حتى صحافة بعض الدول العربية التي ما زالت تعمل لقمع حركة فتح اخذت جانب الفدائي المسجون وصار حجازي بطلا لا يقاوم .

وفي كانون الاول عندما رفض وزير العدل المستقيل دوف جوزف طلب حجازي حدث ذلك على أساس أنه لا توجد ظروف خاصة تبرر وجود محام اجنبي وانه في امكان محام أسرائيلي ان يتولى الدفاع عنه. وعلى الرغم من أن محكمة اخرى طلبت من وزير العدل ان يبين سببا لقراره فان دوف جوزف رفض مرة ثانية .

ولما ردت الدعوى الى المحكمة العسكرية لاعادة المحاكمة في أواخر فصل الشتاء طار فرغاس الى اسرائيل ليدافع عن موكله فأوقف في المطار ووضع على اول طائرة الى اوروبا . رفض حجازي ثانية معاونة محام اسرائيلي ، ودافع عن نفسه واذهل المحكمة بدفاعه عن نفسه بلغة عربية فصحى سليمة من الاخطاء . وهو الذي كانت الصحف قد وصفته بأنه مرتزق ، اي من نوع الاوباش قطاع الطرق .

تأخر الحكم الى نيسان ١٩٦٦ عندما أعلنت الصحف الاسرائيلية ان حجازي مضطر الى اجراء عملية مستعجلة للقرحة . وهذه المرة طلب المدعي العام السجن مدى الحياة فقط في حين أن محامي الدفاع المعين من المحكمة دافع على اساس الظروف المخففة ، كما كان منتظرا ، مصرحا بأن حجازي رجل مسكين بائس لفظه وانكره بلده بالذات (أي الاردن) .

حكم على حجازي بالسجن ثلاثين سنة . والتباين بين الحكم الاول والثاني دل على مقدار ارتباك اسرائيل وقلقها حيال تطورات هذه القضية .

ولفتت القضية الانظار في الخارج ، وعلى الاخص في الاوساط الاوروبية اليسارية غير الشيوعية التي كانت مرتبطة باصرار لا مزيد عليه باسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ . وجاء في نبأ ان سارتر « انزعج » وأنه مستعد لاعادة النظر في مجمل قضية فلسطين في عدد خاص من مجلة « تان مودرن » (الازمنة الحديثة) .

ما بقي عالقا في الاذهان بعد أن قيد حجازي الى سجنه كان ذكرى محاكمة ايخمان ، تلك المحاكمة التي كانت اجراء قانونيا تعرّض للتحدي.

ومع ذلك كان اجراء اسرائيليا سمح لنازي اقترف جريمة القتل الجماعي بأن يوكل محاميا اجنبيا . وفي حواره مع المدعي العام عرضت على البحث قضايا سياسية واسعة كالايديولوجية النازية ومسؤولية الموظفين الرسميين . اما حجازي الوطني العربي الذي كان بحسب المقاييس الاسرائيلية او مقاييس مشايعيها الغربيين على أفظع تقدير « ارهابيا »، فقد أنكر عليه هذا الحق . واصحاب الضمائر الحية الذين قرأوا اخبار المحاكمة في الخارج بدأوا يدركون ان قضية حجازي قضية حق ، عكس ايخمان .

دخلت قضية فلسطين بكاملها ، في معنى غامض رمزي ، آفاقا جديدة اثر دخول فرغاس في الدعوى . وطوال عقود خلت كان هذا النزاع مقنعا في العالم العربي وفي الخارج ليس فقط بالجهود التي بذلها في غير محلها القادة الاوروبيون ــ الاميركيون ، بلبتقارب القوى بعضها من بعض تقاربا افتراضيا : هناك عدد من الدول العربية القوية ارتبط بعضها ببعض على وجه الافتراض بقسم لذبح جماعات من اليهود الابرياء المزدحمين في سواحل آسيا الغربية ، واليهودي الصغير المنعزل رمز دولته التي كانت توشك ان تسحق تحت جزمة الجندي المصري او السوري أو العراقي الجبار . هذه الصورة البشعة (والكاذبة ايضا) غذت الاذهان في الخارج بواسطة الضروريات الذاتية للاعلان الصادر عن عقول العرب التي سيطر عليها التمسك بالزعامة اكثر كما غذاها الاسرائيلي الذي يتولى نشر الاخبار والاعلان والذي يعمل ليل نهار ليحدث التأثير نفسه .

حجازي واخوانه في السلاح هم من عجينة تناقض التخيلات الرديئة الفاسدة على جانبي الحدود . ان قضية فلسطين والفلسطينيين قد ارتفعت في وضوحها الى مستوى اي كفاح ضد الاستعمار .

وفرغاس هو من عجينة تختلف عن عجينة « أصدقاء العرب » الذين شوهوا القضية البسيطة عشرات السنين اما بعواطفهم التي خلقها توظيفهم في الدوائر الاستعمارية ، تلك العواطف نحو البدوي البهيج المتحمل شظف العيش، والتي غالبا ما تغطي عدم اهتمام بآمال العرب وطموحهم البدائية والاجتماعية والوطنية ، وأما بمضادتهم للسامية بدافع الوقاحة والادعاء للعظمة تلك المضادة التي كانت دارجة « على الموضة » في العشرينات والثلاثينات واوائل الاربعينات والتي دفعت بالعرب ان يتخذوا دورا لا يلائمهم ولم يكونوا في حاجة اليه كمستردين للحيف الغربي .

وما أن جاءت الخمسينات حتى اضمحل مثل تلك الصورة . وجاء شبح الثورات العربية يصد تلك الرومانطيقية باقفال قواعد الغرب العسكرية العزيزة على قلبه وتهديد ماله الموظف في النفط ، حتى حرق

فندقه المحبب ، وفوق كل هذا رفعه للدور الذي عينه لنفسه كروح حارسة وكناظر مسيطر .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية لم يعد يهود انكلترا وجنوب افريقيا والاميركتين يعتبرون حديثي النعمة اجتماعيا من النوع الذي يضايق الناس او من الطبقة الوسطى الفقيرة من ساكني المدن . وهتلر الذي مثل دوره مع اليهود الى اقصى درجة من الفظاعة كان الخاسر في النتيجة . ان اليهود الغربيين كفئة عنصرية انتقلوا الى محيط السؤدد والقوة — اصبحوا اثرياء متمشين مع المجتمع على النمط الحديث ومقبولين اجتماعيا وتجاريا ومندمجين في صلب الهيئة الغربية ومؤسساتها . والاوروبي الذي كان مقاوما السامية مبتذلا مدعيا العظمة الفارغة وهو من طبيعته جبان جعجاع ، يحني الان رأسه في احترام وخشية للحقيقة الجديدة .

اذكر اني كنت في القاهرة في أواسط الستينات اقرأ كرّاسات كانت وزارة الانباء في الجمهورية العربية المتحدة تصدرها باللغة الانكليزية . كانت تلك النشرات تعبق برائحة الكراهية الاوروبية النتنة للسامية . وبعد حين اكتشفت مصدر الكتابات . كانت بقلم رجل انكليزي ينتمي الى حركة اوزوالد موزلي الفاشستية ، استخدمه المصريون كمحرر . وفي ١٩٦٧ غادر الانكليزي مصر وهاجم ناصر والعرب وجاهر بعطفه على اسرائيل في كتاب رحبت به الصحافة الانكليزية — الصهيونية وهللت له على ان ما جاء فيه هو الحقيقة بعينها . ونوه مراجعو الصحف اليهود باقتناع المؤلف السياسي المستغرب الذي حمله الخطأ على المجيء الى مصر بصفته « اشتراكيا » .

في فرنسا فئات الطلاب الميالين الى الغرب الذين كانوا قد حملوا على منديس فرانس بوضعهم صلبانا وعبارة « الموت لليهود » على جدران انفاق السكة الحديدية تحت الارض في تحمس سياسي ، رقصوا في الشوارع بنشوة وطرب صارخين (بليتز كريغ) « حملة تدمير » عندما هزم دايان الجيوش العربية .

« يهودنا » قال الالمان الغربيون المتأنقون ! وأخذت الدهشة متوسطي الاعمار منهم في بون حيث دوائر الحكومة والهيئات الديبلوماسية العليا يتولى شؤونها اشخاص كانوا في وقت ما اعضاء في الحزب النازي فأصبحوا يزاحمون واشنطن في عطفهم المكشوف على اسرائيل ومعونتهم لها عشية الحرب .

وزع هنري فورد مرة مئات الالوف من نسخ « اليهودي الدولي » واليوم يتوجب على احفاده ان يتبرعوا بسخاء للجمعية اليهودية العالمية U.J.A. . انها قضية تاريخية مسوقة الى واقع امرها ، ولكن بعض الصحافيين العرب الذين ما زالوا متمسكين بذكريات ذابلة عن

كراهية الغرب القديمة العهد للسامية ، لم يتفهموها .

لا شيء جعل اليهودي اكثر احتراما في عيون العنصريين الغربيين غير اختباراته المدهشة كمستعمر للعالم الثالث . اذ أن اليهودي كصهيوني قد تفوق حتى على الرجل الابيض الظافر ، واصبح العربي عبده الاسود .

في صيف ١٩٦٦ تسلمت خطابا معنونا بأسمي كرئيس تحرير جريدة « جروزاليم ستار » (نجمة القدس) والتي تحولت الى « ذي بالستاين نيوز » (اخبار فلسطين) قبل اختفائها ببضعة اشهر ، كما اختفى كل دليل على وجود المؤسسات العربية في المدينة القديمة . كان مرسل الخطاب آيب ناثان من تل ابيب لكنه وضع في البريد من الخارج .

وناثان كان اسرائيليا ولد في ايران ذا شخصية لا تصدّق . كان صاحب مطعم وطيارا يملك طائرة ذات مقعد واحد زينها بشعار « شالوم ... سلام » وطار بها في محاولة جنونية للوصول الى القاهرة والدفاع عن السلام والتفاهم المتبادل مع عبد الناصر .

وبينما كان طائرا تحير الناس في التكهن حول اية قوة جوية — الاسرائيلية ام المصرية — ستسقطه . انما رحلته الجوية انتهت بسلام في بور سعيد حيث تبادل النكات والهدايا مع الحاكم المصري بينما الميكانيكيون المصريون يصلحون طائرته ويزودونها بالوقود . وأعيد الى اسرائيل . ولما حطت طائرته هتف له الوف من الشباب الاسرائيلي .

جاء في خطاب ناثان : « لقد تتبعت ما كتبته صحيفتكم عن رحلتي الى بورسعيد (لا توجد معي نسخة من الجريدة لكني أذكر أنها اشارت الى أن ناثان اخطأ في عدم توجهه الى الغرب والعيش هناك عيشة معقولة) . غير اني بقطع النظر عن هذه الهجمات لا أنوي أبدا أن أتوقف عن السعي لبلوغ تفاهم أفضل بيننا . أشعر بأنني قد أزددت قناعة بأن في استطاعتنا ، بسهولة ، ايجاد لغة مشتركة بين اليهودي والعربي اللذين عاشا معا في سلام قرونا طويلة » .

واستمر ناثان في خطابه شارحا عظم الصدمة التي انتابت الشعب الاسرائيلي حين عرف أن المصريين لم يسقطوا طائرته ولم يسجنوه . ومضى قائلا ان محاولته كفرد من اجل السلام « استأثرت بمخيلات » الشباب الذين شرح لهم « الحفاوة اللطيفة التي لقيها » واقنعهم بأن العرب ليسوا البرابرة الذين حملوا على الشعور بأنهم كذلك طوال السنوات الثماني عشرة الماضية .

وأخيرا صرح ناثان بأنه بعد المباحثات في بورسعيد وما تلاها من لقاءات مع العرب في أماكن عدة حول العالم ، توصل الى نتيجة هي أن

من الضروري لحكومته ان « تبدي حسن نية نحو الحكومات العربية واللاجئين » . ووعد ناثان بأن يوزع قريبا عريضة سلام داخل اسرائيل مرتكزة على الوعد بأنه « غير ممكن أن يكون سلام الا اذا دفعنا الثمن واني اعتقد اننا نقدر ان ندفعه » .

طلب ناثان مني الجواب عن رسالته فقدمته اليه في افتتاحيات وتعليقات تالية . وتتبعنا الحوادث في اسرائيل بدقة . وراقبنا التعليقات اليومية من اذاعة « كول ازرايل » وتتبعنا افتتاحيات جريدة « ها أرتز » وجريدة « ذي جروزاليم بوست » التي كانت تصلنا عبر بوابة ماندلبوم، ومقالات عن طريق لندن في احدى المجلات الاسرائيلية الاسبوعية التي كانت تصدر باللغة الانكليزية . أصبحنا نعلم ان الهجرة الى اسرائيل توقفت، وان سيل الاموال من اليهود في الخارج خف كثيرا ، وان هذين العنصرين معا — الاموال الجاهزة للبناء وللتوظيف التي يحتاج اليها مئات الالوف من المستعمرين — كانا الدافعين الرئيسيين للنمو الاسرائيلي الوطني .

منذ أواخر ١٩٦٥ كان الاقتصاد الاسرائيلي في تأخر والبطالة في درجة عالية والحسنات توزع على العاطلين عن العمل بدل خلق الاشغال التي كانت متبعة . والمشاريع الصناعية دون تصريف المنتوجات في أسواق المنطقة الواسعة المحيطة باسرائيل أصبحت في حالة انهيار والمشاريع الاخرى لم تتمكن من متابعة العمل الا بواسطة اعانات مالية كبيرة .

وعلمنا ايضا ان عدد الذين غادروا اسرائيل في ١٩٦٥ و١٩٦٦ فاق عدد الذين قدموا بغية الاستيطان فيها ، وان عدد المهنيين المهرة الذين اختاروا ان يعملوا ويعيشوا خارج اسرائيل — بين ٥٠،٠٠٠ و١٠٠،٠٠٠ شخص بحسب المصادر الاسرائيلية — كان فضيحة للصهيونية وعلامة مزعجة لبلد عدد سكانه اليهود اكثر قليلا من مليوني نسمة . وأثر حرب حزيران قال لي احد معارفي الاسرائيليين ان نكتة السنة السالفة كانت لافتة زعم انها علقت في مطار اللد تقول : « المرجو من آخر شخص يغادر البلد ان يطفىء الانوار » .

في انتخابات ١٩٦٥ هزم حزب بن غوريون الجديد المتصلب «رافي» المتملص من الحكم والمشترك اشتراكا وثيقا في سياسة « لا تسوية في صدد الاقاليم او اللاجئين » والذي كان يتزعمه اكبر المدافعين نفوذا عن الغارات الانتقامية والحرب الرادعة — موشيه دايان وشيمون بيرس — على الرغم من تزايد هجمات الفدائيين الدراماتيكية .

في تلك الانتخابات بالذات فاز بالنيابة ناشر في تل ابيب يدعى يوري افنيري صاحب المجلة الاسبوعية المشهورة « هالوم هازيه » الذي اشترك مع التيار الخفي الذي ابتهج برحلة ناثان الجوية

— فاز بصفته حزبا قوامه رجل واحد مرتبط بعهد اخذه على نفسه يرمي الى السلام مع العرب وازالة الصهيونية من اسرائيل والى دور في المستقبل في « اتحاد بين العناصر السامية » في الشرق الاوسط .

بدت حكومة أشكول اقل ميلا نحو القيام بغارات انتقامية قرصنية من سلفها واخذت قرارا بالغاء الحكم العسكري في « القطاع العربي » داخل اسرائيل (ذلك الحكم الذي كان حرم فعلا ثمانين في المئة من السكان العرب القليلي العدد نسبيا والذين بقوا وراء الخطوط الاسرائيلية في ١٩٤٨ — نحو مئة الف نسمة — من الحقوق المدنية الاساسية) .

وبدأ انفتاح على الروس الذين أثنى وزير الخارجية ابا ايبن لدور الوساطة الذي قاموا به في طشقند بين الهند وباكستان . وتساءل ايبن، وهو يدير نظره نحو اوروبا الشرقية : لماذا لا تغمر روح طشقند الشرق الاوسط ؟

وسط هذا الاطار من النظريات كتبنا في جريدتنا ان خطاب ناثان دل على يأس متزايد داخل اسرائيل وانه على الرغم من الفتوحات الجديدة والاراضي التي كسبتها اسرائيل في ١٩٤٨ و١٩٥٦ لم تحطم المقاومة العربية التي أزدادت عنفا ، وان سياسة المقاطعة العربية ستفسد الى الابد امكانات النمو الاسرائيلي وتعرقلها .

واشرنا الى ان في الماضي وجد دوما رجال فريدون ذوو ضمائر حية ، واحيانا رجال بارزون بين اليهود وفي فلسطين ومؤخرا اسرائيليون أيضا ، أنكروا على الصهيونية طبيعة فتوحاتها على انها غير قابلة الهضم . ومن اولئك الرجال البرت اينشتين ، ومارتن بوبر ، وجودا ماغنس ، وايرخ فروم ، وناثان شوفشي .

لكن ناثان لم يبد كرجل فريد ذي ضمير حي بل كان يتكلم بحكمة التاجر أكثر منه رجلا يهتم بالاخلاق . فنمط كتاباته لم يعكس مطلقا تبصرا مفاجئا . ويظهر ان البنيان الاجتماعي الواقف عليه مهما بدا ثابتا كان مؤسسا على الشر ، كذلك اعترافه بأن البنيان كان متمايلا وغير ممكن تثبيته الا بالمساومة .

فكرنا ، من باب الحدس انه لو افترضنا توفر دوافع مخلصة لدى ناثان فانه كان عرضة للاستعمال من جانب أوساط تجارية ومهنية تحيط نفسها بسياج من التحفظ وهي ساعية لابعاد حكومتها عن السياسات التقليدية الفاشلة. وأن تلك الاوساط كانت مستعدة — خلافا لبقية الاوساط الاسرائيلية — للتنازل عن امتيازات رئيسية في ما يتعلق باللاجئين ، وكذلك في صدد الاراضي على أمل الحصول على سلام من شأنه ان يؤمن لها السيطرة الاقتصادية في المنطقة .

هذا النوع من التخمينات والمضاربات في افتتاحيات الصحيفة ، ولو أن قلمي سطرها بسهولة وسرعة (وهذا من عيوب المنطقة)

اثبتته لي ، مع ذلك ، فئة صغيرة من النقاد الاسرائيليين الاصليين الذين تتبعوا ظاهرة ناثان باستغراب وصوتوا لمصلحة افنيري .

ولكن كم كان هذا البرهان عن صحة هذا التحليل قويا وسائرا سيره الطبيعي. وما تصورته في ألوف الشباب الذين هتفوا لناثان وتألبوا حوله في غوغائية في مطعمه الأنيق هازئين بالمثل الصهيونية القديمة ، كان في غير محله ، وتحليل اسباب تردي الاقتصاد الاسرائيلي والميل الجديد الحذر نحو اتخاذ موقف الدفاع في السياسة الخارجية كان تافها ولا لزوم له .

كان من المهم ان نعرف ما يفكر فيه بن غوريون القابع في مزرعته (كيبوتز) في النجف وهو يغذي احزانه القديمة . والاهم أيضا معرفة ما كان يفكر فيه الشخصان اللذان كانا تحت حمايته — شيمون بيرس وموشيه دايان البعيدان عن الحكم واللذان لا يستعملان موقتا،مع احتفاظهما بالروابط التي تشدهما الى حزبهما وبالنفوذ العميق الذي لهما لدى ضباط الجيش واركان الحرب وبالشهرة المعروفة عنهما أنهما اكثر الناس تمشيا مع العصر الحديث والاكثر حيوية وزخما و « تأمركا » بين الذوات وعلية القوم في اسرائيل .

حلل رودنسون واسحق دوتشر وغيرهما من الماركسيين الاوروبيين في مقالاتهم عن حرب حزيران كل هذه الدلائل بدقة شديدة الى حين نشوب الازمة التي تضمنت (بحسب المعلومات التي توفرت لديهم) تهديدا بانقلاب تقوم به القوات العسكرية الاسرائيلية حين تردد أشكول حيال فكرة حرب شاملة استفزتها الحوادث التي حركتها تلك القوات المسلحة بالذات .

وقال دان اومر الشاعر الاسرائيلي الشاب، وهو من الراديكاليين (الاحرار المتطرفين) ، بعد مرور أشهر على الحرب : «اننا جرفنا جميعا اليها ... مجزرة بشرية كان علينا ان نتجنبها بالدفاع الذاتي ، اناس من « اليسار » ، اصدقائي انا ، لا اناس مثل افنيري . تسابا وحده (وهو كاتب ومصور هزلي اسرائيلي يقيم الان في انكلترا وقد نفى نفسه اختيارا اليها) الذي كان عالما بما يجري . اذكر لقائي به في احد المقاهي حين قررت الالتحاق بوحدتي الاحتياطية اذ ضحك مني وقال : « لقد اخذوك انت ايضا . ان الجيش قبض على الجميع هذه المرة . سترى انها ستكون سويس أخرى انما اكبر وافضل » .

ان ازمات سوريا وفتح في أواخر ١٩٦٦ التي تفتحت من بعد على حرب حزيران قد يمكن ان تستحثها في سهولة الى أمر حاسم ، الهيئات العسكرية الاسرائيلية والمتسيسون الأميركيون لان فكرة مهاجمة العرب تثبت بالضبط ما تضمره الصهيونية . وأتت الحرب بمكاسب عظيمة لم تقتصر على ضم القدس ومقاطعات عربية شاسعة جديدة استولت عليها

اسرائيل لتستعملها كأداة للمساومة الصلبة مع الزعامات العربية المنظورة ، بل اعادت تدفق الاموال والمهاجرين من وراء البحار واعادت بالتالي نمو اسرائيل الاقتصادي .

« من يذكر الآن انه قبل بضعة أشهر خلت حدثت أزمة ايمان، وان صفوفا طويلة كانت تحتشد امام القنصليات في تل ابيب للحصول على تأشيرات الهجرة الى خارج ؟ »، هذا ما كتبه محررو مجلة «نيو اوتلوك» الاسرائيلية الشهرية في آب ١٩٦٧ .

وسيتكلمون في ابتهاج في تل ابيب وهرزليا عن ازدهار ما بعد الحرب الى حين وقوع الواقعة ثانية ، الامر المنظور منذ الآن .

تشاؤم

تحرك الامل في القدس عندما استمرت أزمة منتصف نيسان ١٩٦٧ العربية — الاسرائيلية واشتدت في أيار . ترى هل تنفجر هذه الازمة كما كان الفلسطينيون ينتظرون منذ سنة ١٩٤٨ ؟

تعلقت ثقة العرب في الهواء كبشير رهيب . لم يكن لهذه الحالة النفسية سوى شبه قليل بحالة لندن خلال الغارات الجوية الطاحنة ، او حالة كوبا في لحظة الهجوم حين يتقبل الناس امكان الموت في سبيل المعتقدات او مستلزمات الحياة اللائقة البسيطة ويدخلون في نضال شديد مستعملين ما لديهم وما في امكانهم صنعه من معدات . ان هذه المحاولة بالضبط للتغلب على الظروف بقوة الارادة والعزم هي التي تخلق مثل هذا الاندفاع الذي لا يصدق .

انما في القدس كان الجو ساحرا . لم يفعل احد شيئا . بل كان الناس يتجولون هنا وهناك يهنىء بعضهم بعضا ويمدحون جمال عبد الناصر على اعتقاد ان هذا الرجل سيتغلب على العدو ويحطمه بجرأته الفذة . لذلك لم يكن ضروريا ان تؤثر الحوادث على سير الحياة الطبيعي ونشاطات شعب متورط الى الصميم في النضال .

« كان قبلا كل واحد متكلا علينا . والان اصبح كل واحد متكلا على نفسه ، وهذا أصح » . هذا ما قاله عبدالناصر بالذات بعد الحرب .

في افتتاحياتنا في « ذي بالستاين نيوز » اشرنا الى ان الاسرائيليين كانوا منهمكين بذعر في مشترى المؤن الى درجة خلقت سوقا سوداء للضروريات الاولية من المأكولات في تل ابيب ، بينما كانت الثقة الجنونية تكتسح الضفة الغربية حيث لم يظهر حتى التفكير منطقيا في وجوب ادخار الضروريات فقط تحسبا لحاجات الملاجىء في الغارات الجوية التي كان من الواضح وقوعها . لم يفكر اي شخص — حتى من المسؤولين الذين لا يعتد بهم — في بناء الملاجىء للحماية من الغارات الجوية ، او الدفاع المدني ، او المقاومة الشعبية الا قلة ضئيلة من القوميين المتطرفين المغضوب عليهم من الجهات الرسمية منذ تمرد السموع .

البلدية وحدها ظهر انها تتخذ الاحتياطات التقليدية القصوى . كان رئيس البلدية روحي الخطيب قد انهى اجازته في جنيف ، والغى برنامج زياراته للنمسا والعراق ، وعاد الى المدينة في الرابع والعشرين ليتفقد بسرعة وهدوء الاحتياط من الماء ويطلب سرعة التموين بالوقود من قبيل الاحتياط لخمسة اشهر . ولما اندلعت الحرب كانت محطات الضخ ومحطة الكهرباء على الاقل مغطاة بأكياس الرمل ، وكذلك ابراج المراقبة التي كانت في قيد البناء .

خف الانتاج بدلا من ان يزيد كما كان واجبا لان الناس في كل مكان تركوا اعمالهم ليصغوا الى اذاعات الراديو ويتحدثوا في السياسة . أما الاعمال فما كانت لها اية علاقة في ادمغتهم بالمهمات التي يحتمل ان تواجههم .

بدا لي ان العمل في المطبعة قد تباطأ فأسرعت من مكتب التحرير اليها، وهي على بعد بضعة امتار ، فوجدت الرجال انفسهم الذين كانوا متحمسين لوقوع الحرب غاضبين لان اخبار الآزمة واوضاعها استلزمت ساعات اضافية من العمل ليلا . وأمام هياجهم هذا وجهت اليهم بعض العبارات بالعربية عن وجوب تجنيد القوى « لمعركة الانتاج » وكيف ان « كل آلة أداة سلاح يستعمل ضد العدو » ، فنظروا الي بعيون غير مصدقة .

كانت الحرب واقعة من حولهم ومع هذا لم تكن كذلك . كانت عندهم موجودة في اذاعة محطة « صوت العرب » أو على بعد الف ميل في أوتار « الريس » الصوتية . وكل ما كانوا يريدونه هو الذهاب الى بيوتهم او مقاهيهم ليتمتعوا بتلك الحرب .

الى أية درجة كان في استطاعتي ان الومهم ؟ غرفة المطبعة يحتلها ستة رجال اشداء صالحين لخوض غمار الحرب لكن يجهلون كيف يستعملون البندقية . وكان في العقبة مهرجان قبل أسبوعين خلال حماة التوعدات ضد سوريا حضره الملك باذن من مستشاريه لقضاء يوم يستعرض فيه المتزلجين على الماء وملكات الجمال .

رجل عصبي هستيري اوحد في مدينة المجانين الهادئين ! كانت عزلة الاردن تتزايد كل دقيقة ، والملك وشعبه كل على طريقته يمشي في يقظة نومية للذبح منفصلا بعضهما عن بعض .

كان ذلك هو الوقت الذي فيه حذرني وطنيون محترمون أن من المحال الكتابة عن مقاومة شعبية في افتتاحية صحافية لان ذلك ينطوي على افتراض حقيقي ان الاسرائيليين سيجتاحون الضفة الغربية في اي صراع . وكل من ينوه بمثل هذا الامكان يتهمه الشعب بالخيانة . وفي عمان سمعت أصواتا ذات سلطة تقول بمنع المقال الصحافي على انه « سابق لاوانه » .

وفي الشارع لم يسمع سوى الحديث عن حرب « في الخيال » . اذ لم يكن في استطاعة افراد الشعب التحدث عن امكان وقوعها وتبديل حياتهم الحاضرة بسبب افتقارهم الى الاهتمام الجاد الحقيقي بكيانات مجتمعهم الرئيسة . ومع هذا على مستوى شخصي غير فعال داخل المؤسسات ، في القصر ، في مركز البوليس ، في مكاتب الموظفين وفي الوزارات ، كان الحديث ينحصر في امكان نشوب الحرب . والجميع كانوا يصغون الى راديو القاهرة .

«ومن كان يقدر أن يلومهم ؟» قال هذا محافظ القدس الصلب أنور الخطيب يائسا في الصباح الباكر من ٣٠ أيار غير عالم ان الملك كان في تلك اللحظة في طريقه سرا الى القاهرة . جلست في ديوانه أتكلم كهاتف الهي يلتهب تهيجا فاتحا شدقتيه كصوفي عاد بغتة من غيبوبة طويلة الى ساحة السوق ليعمل شيئا ، وانور الخطيب يصغي .

وقبل أن انتهي كان المحافظ قد توصل الى قرار ، فتناول الهاتف واصدر تعليماته لعقد جلسة طارئة بعد الظهر من الاعيان المدنيين وممثلين للجيش والحكومة المدنية والزعماء الوطنيين الراديكاليين للبحث في انشاء مجالس للمقاومة الشعبية في انحاء المدينة والقرى المجاورة .

في تلك الجلسة جرى نقاش حاد عندما تساءل عز الدين التل رئيس محطة الاذاعة المحلية عن الحكمة في تسليح الشعب وهو ما يطالب به الوطنيون في حال انشاء « مقاومة شعبية » . هذا النقاش وضع المحافظ في مركز حرج وهو الذي اجاب قبل ساعات قليلة بصراحة عاطفية عن مقترحاتي الاكثر تطرفا وكان على علم بأن مسألة المقاومة الشعبية قد توجه ضد جوهر النظام التقليدي الاردني الذي كان أصبح جزءا منه الى حد بعيد .

افتتح المحافظ الجلسة بملاحظته عدم وجود اي استعداد او اي اتصال بين الشعب والسلطات ، فانبرى له احد الوطنيين ، اسحق الدزدار بالقول انه والتل كلاهما مشترك في المسؤولية عن ذلك الفراغ. وصاح قائلا : « لا توجد اية علاقة او صلة او اية روابط ثقة ولا وجود مشترك بين الشعب من جهة والسلطات من جهة اخرى » .

هذا موضوع عالجه الدزدار زمنا طويلا . كان وكيلا للسياحة . وفي حملة الانتخابات النيابية في اوائل الستينات ــ تلك الانتخابات التي تميزت بالحرية ، وذلك أمر نادر في الشرق الاوسط ــ رشح نفسه وفاز بالنيابة لكنه سجن وارسل الى الجفر بعد ان حل البرلمان .

كادت تلك المناقشة تؤدي الى فض الجلسة لولا تدخل المحافظ الذي خفف من حدتها بقوله ان الخلاف ناتج عن سوء تفاهم : تسليح شعب غير مدرب بدلا من مبدأ المقاومة الشعبية . ومن جهة عزالدين فله ما يشهد بوطنيته اذ حارب في سنة ١٩٤٨ كمتطوع اردني وجرح في

صفد . قال المحافظ : « السلاح للشعب طلب معقول » ، ووافق رئيس الشرطة وضابط الارتباط فسحب التل اعتراضه . انما الحادث دل على الريبة المفجعة التي شلت العلاقات بين الاردنيين والفلسطينيين وأفسدتها.

جاءت الاخبار عن وجود الملك في مصر والمصالحة بينه وبين عبدالناصر وتوقيع حلف دفاع مشترك . جاءت عن طريق الراديو في ديوان المحافظ بينما كانت اللجان الشعبية للنقل والتموين والمقاومة والدفاع المدني والمواصلات في قيد التشكيل .

مع وجود هيكل حكومي جاهز كان التجنيد لعمليات الدفاع المدني سريعا ولو انها كانت فطرية بدائية . وانشأ موسى البيطار مركز القيادة في المدرسة الاموية داخل سور الحرم الشريف الشمالي على طريق الآلام (فيادولوروزا) مرتبطا بالتلفون بأربعة مراكز في المدينة القديمة بما فيها واحد في الطابق الارضي من بيتي .

التأمت لجنة المقاومة بعد الظهر في رئاسة بهجت ابو غربيه وهو مدرس نحيف البنية بليغ التعبير وهذه صفات لها قيمتها في هذا الشرق الملآن غرورا(١) . واستدعي ثلاثة فلسطينيين كانوا قد خدموا كضباط في الجيوش العربية ليعملوا مستشارين لدى اللجنة، وطلب منهم ان يضعوا حالا خطة للدفاع عن المنطقة مع التفاصيل الوافية عن الاسلحة ولوازم التدريب والطاقة البشرية الممكن تجنيدها .

ولئن لم يكن السلاح موجودا في أيدي الناس فان الاخبار عن زيارة الملك للقاهرة وحلف الدفاع كانت على ما يظهر سلاحا كافيا . وبعد الظهر عاد الملك حسين من زيارته لمصر التي استغرقت ست ساعات واستقبل بالخطب الشعبية في عمان . والشباب الذين كانوا يلعنون اسمه بالأمس حملوه الآن في سيارته المرسيدس ومشوا به بضع خطوات في الشارع دلالة رمزية على الانتصار . واشترك الشقيري في هذه الحركات اذ هتف باسم الحسين « كزعيم الفلسطينيين » في مؤتمر حلف الدفاع في القاهرة وعاد مع الملك الى عمان .

تحول فجائي : ظهرت على جدران الشوارع صورة عبدالناصر قرب حسين وأيضا في الدكاكين والمقاهي وفي الصفحات الاولى من الجرائد وذلك اول مرة خلال سنتين . وفي القرى الاردنية رقص الجنود مع المدنيين رقصة الدبكة . وفي القدس امام باب الساهرة (بوابة هيرودس) جاء لاجيء متقدم في السن مرتديا لباس القرية وحاملا سيفا وترسا ورقص رقصة حرب عربية قديمة فهتف له ألوف الشباب .

---

١ ــ بعد الحرب وانهيار زعامة الشقيري تولى ابو غربيه منصبا بارزا في منظمة التحرير الفلسطينية . وهو الان زعيم جبهة الكفاح الشعبية ، وهي من الجماعات المنتمية الى منظمة التحرير الفلسطينية .

بين هذه الصيحات الحربية والموسيقى العسكرية المتفجرة من اجهزة الراديو ظل الناس ساهين . ولما جاء صوت راديو عمان اخيرا يدعوهم الى التبرع بالدم ذهب أحد زملائي في الجريدة الى مركز الهلال الاحمر في المدينة القديمة فوجده خاليا ولم يدرك المدير والمرضة لماذا حضر زميلي فجأة . هل وقع حادث لاحد افراد عائلته ؟ الى أي مستشفى نقل المصاب ؟ مرت خمس واربعون دقيقة حتى استطاع نبيل ان يعطي نصف ليتر من دمه .

وفي النهاية ظهر بعض الحكمة المخبأة من اليقظة النائمة ومن اللاشعور الذي كان يشع بالتفاؤل الكفاحي . فالحالة على العموم كانت تتميز بالقنوط وعدم الرغبة في الانغماس الشخصي مما مهد الطريق للهزيمة . وكانت هذه الحالة ، على صعيد الافراد ، بمثابة وسادة انقذت عددا كبيرا من ذبح عقيم .

اجتمعت لجنة المقاومة باكرا غداة اليوم التالي وتسلمت من مستشاريها لائحة بعشرة آلاف قطعة متنوعة مطلوبة من السلاح الصغير والذخيرة وبعدد لا يحصى من القنابل اليدوية والالغام . وقد وضعت هذه الارقام على اعتبار ان في المنطقة ١٠،٠٠٠ رجل مدرب الى درجة ما تدريبا عسكريا — من الجنود والمقاتلين القدماء من ميليشيا ١٩٤٨ وطلاب في المدارس الثانوية الذين تلقوا دروسا أولية في التمارين العسكرية واستعمال الاسلحة الخفيفة بصورة عرضية مرة كل أسبوع خلال السنوات الماضية . وكان هناك كذلك عدد من الجنود القدماء الذين كانوا في الحرس الوطني الاصلي الذي اندمج رسميا في الجيش النظامي في الخمسينات ، ذلك الحرس الذي حل لاعتبارات سياسية ذات صلة بالامن .

وكان الحصول على الاسماء ومجموع العدد سهلا حتى ١٨ ايار . وعندما وضع الجيش الاردني في تأهب أمرت الحكومة كل المخاتير ان يهيئوا لوائح بعدد الرجال القادرين على حمل السلاح .

أخذ الدزدار لائحة السلاح الى المحافظ الذي صفر حين رأى ضخامة الطلب وسمع الدزدار يقول ان هذه لم تكن سوى البداية . وما أن تتسلم اللجنة الاسلحة وتوزعها وتنشىء وحدات من الميليشيا حتى تطلب اسلحة اضافية للالوف المنتظر تقدمهم ليتطوعوا للتدريب . وأرسل المحافظ اللائحة الى القيادة بالطريقة الرسمية .

نظمت لجنة المقاومة على مدى الاسبوع مراكز القيادة في المدينة القديمة والضواحي القريبة استعدادا لتسلم الاسلحة — اثني عشر مركزا داخل أسوار المدينة وخمسة خارجها — في المصرارة ، باب الساهرة ،

وادي الجوز ، الشيخ جراح ، وابو طور . واستعدت اللجنة لتنظيم مراكز اضافية في جميع القرى المحيطة باستثناء بيت اكسا والنبي صموئيل لانهما تحت قيادة الجيش الاردني العربي مباشرة .

كان احمد الشقيري في القدس منذ الاربعاء (٣١ أيار) يحاول ان يلتقط الخيوط الفالتة من منظمة التحرير الفلسطينية التي كان قد قطع خيوطها بنفسه او رماها لمقص الحسين في الشتاء السابق تدليلا على حسن نياته .

يوم الجمعة اجتمع المحافظ والشقيري في فندق امباسدور وذهبا معا الى المسجد الاقصى لاداء الصلاة . وتجمع في باحة الجامع الخارجية بضع مئات من اتباع الشقيري الباقين الذين قدموا من انحاء الضفة الغربية ، وبضع مئات من الشباب المحليين ليرحبوا به ويهتفوا له ، فكان ان قاطعت هذه الضجة الصلاة في الجامع المكتظ بالمصلين وأثرت تأثيرا سيئا في الجمع الذي كان يأمل الشقيري ان يلقاه مرتاحا لرؤيته .

بعد الركعة الاخيرة شق الشقيري طريقه مترنحا (بدينا ومتباهيا ببزته العسكرية) ليرتقي محراب صلاح الدين وعندها دخل مئات من اتباعه المسجد الذي كان قد بدأ يفرغ جزئيا من الحضور ،وكانوا متهيجين حتى ان عددا منهم نسوا ان ينزعوا احذيتهم فأرغموا على التوقف .

علت اصوات الجمهور مطالبة الشقيري بأن يتكلم فأخذ الميكروفون من يد الشيخ أسعد بيوض ، وهو واعظ ناري قضى مدة في السجن كسجين سياسي وكان عادة يلقي خطبة غير رسمية بعد الصلاة والى جانبه شرطي لمنعه من التمادي .

ه... الذي كان في المسجد ، تاجر متوسط السن يأتي نادرا للصلاة ، اخذني جانبا . في أيام الانتداب والكفاح ضد البريطانيين والصهيونيين كان يقضي وقته بين ذراعي عشيقته اليهودية (عائلته كانت في ذلك الوقت زعيمة المعتدلين) وهو أحد القلائل من رجال عصره الذين ما زالوا مشغوفين بهتلر . مضى بي الى جانب وقال لي : « اذا نشبت الحرب سنقضي عليهم وسأصحبك معي الى المدينة الجديدة لنأخذ نساءهم » .

غص حلقي لدى سماعي ذلك الكلام واستولت عليّ موجة من الاشمئزاز والكراهية لهذا الرجل ولهذا الحشد العديم العقل ولفظاظة الشقيري . وتمخض المشهد عن الشغب وعدم الانتظام بصورة هستيرية وهذا ما يرافق حتما كل هزيمة . فكر انور الخطيب الذي كان قرب الشقيري عندما توجها الى خارج الجامع وقال : « سنعاقب على هذا » .

ذهب أنور الخطيب صباح السبت الى عمان لمقابلة خـال الملك الشريف ناصر نائب قائد الجيش ، وكان اللواء حابس المجالي قائد الجيش ، لكن كان من المعروف عمومـا ان الشريف ناصر هو القوة المسيطرة في الجيش . وبما ان المحافظ لم يتلق جوابا رسميا عن طلبه السلاح ، فقد قرر ان يعالج الامر مباشرة .

« أرجوك ان لا تتكلم في مثل هذه الامور . نحن لدينا خمس فرق لحماية القدس ، ورتبنا كل شيء » قال الشريف ناصر حين طلب الخطيب ١٠،٠٠٠ بندقية .

لكن المحافظ الح قائلا ان القدس تحتاج الى هذا السلاح. واخيرا قال الشريف اذا تحمل المحافظ المسؤولية (بصورة طلب خطي) عن توزيع السلاح على الشعب فان الجيش سيرسل اليه ١٠،٠٠٠ بندقية.

ترك أنور الخطيب الشريف ناصر وذهب الى ديوان رئيس الوزارة حيث وجد الملك وقال له انه غير مكتف بتأكيدات الشريف ناصر ... وانه ما زال منزعجا من الوضع . فتبسم الملك وقال له : ليس ثمة داع الى القلق ، ولمح الى أن حلا سياسيا اصبح اكثر احتمالا من الحرب .

وعاد المحافظ في ساعة متأخرة بعد الظهر الى القدس واستدعى اليه الدزدار ليخبره أن الجيش قبل تقديم السلاح . فذهب هذا في رفقة ابو غربيه الى المحافظة حيث قال لهما انور الخطيب انه بعث بكتاب رسمي مع رسول على دراجة بخارية الى عمان يتضمن طلبا للسلاح وان السلاح سيكون في القدس في ساعات .

وفي هذه الاثناء كانت لجنة المقاومة قد أنشأت مركز قيادة مجهزا بهاتف في مدرسة القادسية في حي باب خطة داخل أسوار المدينة وليس بعيدا عن باب الساهرة وعينت موظفيه . (تعرضت هذه المدرسة لقصف محكم مدهش من المدفعية الاسرائيلية في الحرب) ، وعاد الدزدار وابو غربيه الى هناك لينتظرا وصول الاسلحة .

في المساء اجتمعت في القدس لجان الدفاع المختلفة التي كانت قد شكلت في مطلع الاسبوع وترأس الاجتماع رئيس قضاة المحكمة الاسلامية في المدينة الشيخ عبدالحميد السايح الذي نفاه الاسرائيليون الى عمان بعد الحرب ببضعة اشهر لانه تزعم حركة المقاومة المدنية ضد الاحتلال .

ووضع برنامج لاجتماع عام بعد ظهر الاثنين (٥ حزيران) يحضره القائمون بحركة الدفاع الشعبي وارسل الى الصحف اعلان عن هذا الاجتماع يتضمن طلبا مفتوحا موجها الى السلطات في عمان لاجل السلاح وظهر الاعلان في « ذي بالستين نيوز » ، صباح اليوم التالي .

بعد الاجتماع تقدم الدزدار من الزعيم عطـا علي قائد فرقة المشاة « طلال » التي كانت مكلفة الدفاع عن منطقة القدس بكاملها وطلب منه ان يفيده لماذا الاسلحة لم تسلم بعد قائلا :

« حسب متطلبات التخطيط العسكري (التكتيك) يتقدم الجيش او يتأخر انما نحن الذين نعيش هنـا يجب ان نبقى ونقاتل وهكذا يجب ان يتكل الجيش علينا اذا كنا مسلحين وليس لنا ان نتكل نحن على الجيش » .

لم يأخذ الدزدار جوابا لكنه مس بكلامه حاسة الشرف لدى الزعيم فأجابه هذا : « لدينا أوامر بأن لا نتزحزح سنتيمترا واحدا . سنتقبل الموت دفاعا عن القدس » .

تلك الليلة نفسها (٣ حزيران) وردنا بواسطة جهازنا اللاسلكي في الجريدة نص تصريح موشيه دايان في مؤتمره الصحافي الذي عقده عقب تعيينه وزيرا للدفاع . واذ قراه المحرر الليلي واخذ نسخة عنه أحاله علي لاقراره . كانت كلمات دايان لطيفة الى حد الغرابة اذ قال انه ينتظر نتيجة الجهود الديبلوماسية ، واقر بانعدام المبادرة العسكرية لـدى اسرائيل . قال دايان : « الحكومة — قبل أن أصبحت عضوا فيها — سلكت الطريق الديبلوماسي . واجب علينا ان نعطيها الفرصة » .

وكان وزير الدفاع الاسرائيلي قد منح الوفا من الجنود الاسرائيليين اجازات وأرسلهم ليتصوروا وهم يستحموا على شواطىء تل ابيب في عطلة الاسبوع وارسل الصور الى الجرائد . ان هذه اللمسة الاخيرة التي أتى بها دايان قوّت الشعور العام لدى مراسلي الصحف (وكانوا على علم بظواهر الاتصالات الديبلوماسية بين القاهرة وواشنطن وحصار تيران « على الورق ») بأن الازمة ستخف حدتها .

انما في القدس العربيـة ، ليلة السبت تلـك ، اعتبر الناس تصريحات دايان شبيهة كثيرا بكلام بن غوريون حين عرض أن يذهب الى القاهرة لاجراء محادثة مباشرة مع عبد الناصر وفي الدقيقـة نفسها كان الجنود الاسرائيليون يتحركون ليبدأوا الهجوم في حرب السويس ١٩٥٦ .

وضحكنا من فكرة نشر حكاية دايان في الجريدة تحت عنوان : « الاسرائيليون يوشكون ان يهجموا » . انها في نظرنا جزء من مزاح سري كان قد تولانا وجعلنا نتساءل كيف ان الزعمـاء العرب كانوا يرعدون ويتوعدون بسفك الدماء والخراب دون أن يقوموا بأي عمـل بينما الاسرائيليون يتكلمون بنعومة عن السلم والمصالحة ويوجهـون سهامهم الى العرق الحساس خداعا ومخاتلة . وفي تلك الليلة وضع المحرر الليلي العدد الاخير من « ذي بالستين نيوز » في الفراش لينام نومه الابـدي .

كان الشقيري صباح السبت قد ذهب مع المحافظ بالسيارة الى

عمان لعقد مؤتمر صحافي وحضور حفلة رسمية كرر فيهما موضوعه المعتاد عن قلة الذين سيبقون احياء في اسرائيل أثر الحرب وعن الدور الذي سيقوم به جيشه باطلاقه اول طلقة . وبما ان الناس جميعا كانوا يعلمون ان منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن تحت قيادته بل مرتبطة بجيوش الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والعراق ، فان أقواله الغوغائية كانت قلة حياء وصفاقة . وثارت عمان غيظا اذ لم يذكر شيئا عن الجيش العربي الاردني في خطابه في الجامع ، صباح الجمعة .

وبعد الظهر عاد الشقيري وحده الى القدس لمقابلة الاعضاء السابقين في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كان قد أقالها ، وقد حضر الى الاردن ليعيد فتح مكتب المنظمة ويتصالح مع هؤلاء الرجال . ويوم الاحد قبل طلباتهم في صدد القيادة المشتركة والمبادرة المحلية، وعندها وافق بهجت ابو غربيه واسحق الدزدار ويحيى حموده على الخدمة في اللجنة التنفيذية المجددة .

ركب الطائرة المسافرة الى عمان عشية الاحد من بيروت ستة قواد في سلاح الجو الاردني كانوا عائدين من الولايات المتحدة حيث جرى تدريبهم كمدرسين لطياري الطائرات النفاثة « ستار فايتر » التي وعد بها الاردن . وكان على متن الطائرة ذاتها حازم خالدي مدير السياحة في القدس العربية . والخالدي كان قد رجع الى بلده قبل اكثر من سنة بعد أن قضى ثلاثين سنة خارج فلسطين ضابطا في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية ثم مدرسا في كلية الضباط السورية فمديرا في شركة النفط البريطانية .

قدمت عائلة الخالدي في الماضي الى القدس ادباء وفقهاء ورجال قانون وارسلت رجالها الى اسطنبول حيث تولوا مراكز في الوزارات وانخرطوا ضباطا في الجيش العثماني . وفي فترة الانتداب كان منهم من التحق بجامعتي اوكسفورد وكمبردج طلبا للعلم . وغياب حازم الخالدي السنين الطوال في الخارج كان نموذجيا لمئات من الفلسطينيين المتعلمين الذين غادروا موقتا ما تبقى من البلد بعد سنة ١٩٤٨ بدلا من ان يتحملوا الامكانات الثقافية الضيقة تحت الحكم الهاشمي الريفي . وقد اوجد الخالدي في نفسه سلامه الخاص ورجع الى الاردن للخدمة العامة .

جلس في الطائرة يتحدث مع احد القواد الذي اظهر قلقه حيال التطورات الأخيرة . أن قوات الجو الاردنية المجهزة بطائرات مقاتلة بريطانية بطيئة لا تستطيع ان تبقى في الجو وحدها ضد الاسرائيليين . والامل الوحيد اذا نشبت الحرب هو في وجود فرق من طائرات « ميغ »

المصرية والعراقية في الاردن . وكان في المطار فريق من ضباط الطيران الاردني واقفين حين حطت الطائرة .

« هل جاؤوا ؟ » كان أول سؤال وجهه قائد الطائرة الى رفاقه .

اجابوه : « كلا » . وتبين الخالدي امارات الخوف على وجه رفيقه .

وفي عمان قابل الملك حسين بعد ظهر ذلك اليوم مراسلي الصحف الاجنبية في القصر . وظهر ببدلة الحرب امام حشد من الصحافيين وموظفي التلفزيون رزينا هادئا متواضعا شأن القائد العسكري الواثق . وكان الحسين دائما في حالات التوتر اهدأ ما يكون اعصابا .

كانت ملاحظاته منتظمة وكرر طلباته الى الدول الغربية ان تردع اسرائيل او على الاقل تحتفظ بحياد شديد تجاهها . استمال الملك معظم هؤلاء المراسلين الاجانب باسلوبه العام ، انما فكرة نشوب الحرب في ثمان واربعين ساعة التي ابداها الحسين كأمر ممكن وقوعه بدت مستحيلة التصديق . توقف المؤتمر مدة وجيزة بعدما دعي الملك الى الخارج . وكان السبب مخابرة هاتفية من عبدالناصر . ولما رجع الى المؤتمر اعلن ان رئيس الجمهورية العربية أفاده ان العراق وقع حلف الدفاع مع مصر . غير ان الملك رفض التعليق على الاخبار غير المنقطعة عن تحركات كبيرة لجيوش عربية نحو الاردن من الدول المجاورة .

وبالفعل كان لواء عراقي (٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ جندي) في طريقه الى دخول الاردن قاطعا النهر على مسافة شاسعة نحو شرقي الجبهة . ومن جهة ثانية وصلت عبر الجو فرقتان من الكومندوس المصريين الى عمان (١٢٠٠ رجل) في طريقهم الى الضفة الغربية ، وفرقتان من السعودية لم تتدخلا بالتالي في الحرب تحركتا نحو المدوره في اقصى جنوبي الاردن على مقربة من الحدود مع السعودية ، ووصلتا في اليومين الثاني والثالث بعد نشوب الحرب . كذلك في اليوم الثالث بناء على طلب من رياض القائد العام قدم الى شرق الاردن لواء سوري الا أنه أمر بالعودة حالا لان الاردن اصبح خارج القتال بينما العدو كان يهاجم سوريا .

هذه هي الكماشة العربية الضخمة التي كانت موضوع تهويل نظري في الجرائد الاسرائيلية والغربية مدة تزيد على اسبوع .

كان رجال الصحافة قد احتلوا ردهات القصر قبل المؤتمر بأكثر من ساعة : جماعات صغيرة من الاوروبيين والاميركيين ومخبري الصحافة المحلية ومحرريها .

كان بعض المراسلين الاجانب الذين زاروا القدس قد قال لي ان تخوفي من قرب نشوب الحرب دليل على مدى قابليتي للهستيريا العربية . فالتوتر الان في طريق الزوال والدقيقة الحاسمة مرت —

من الممكن خلال الاشهر القليلة المقبلة اذا تفكك الاتحاد العربي أن تضرب اسرائيل ضربتها — كانت هذه النظرية هي الغالبة بعد ظهر ذلك اليوم .

اما الصحافيون العرب فكانوا مقتنعين بامكان الحرب . بل كانوا مبتهجين وواثقين من النصر باستثناء احد الناشرين الذي عاش وسافر في الغرب وقاتل كمتطوع في حرب ١٩٤٨ وكانت عنده المعرفة الكافية بما ينتظر من الانجازات التي تنطوي على حرب تكنولوجية من الدرجة العالية . ابتعدنا جانبا عن بقية الصحافيين المحليين وعندها زالت عن وجهه تلك الابتسامة القوية .

قال لي : « والله يا أبا داوود اذا وقعت الحرب فالاسرائيليون سيسحقون الجيش المصري في سيناء ويستولون على شرم الشيخ » . لم اوافق وقلت له : « كلا انها خدعة او هدف ثانوي . الهدف الحقيقي هو الضفة الغربية . انهم سيزحفون في اتجاه وادي الاردن ويعزلون القدس ثم الضفة الغربية بكاملها . هذا ما يريدونه وما أرادوه دائما يا محمود » . وهكذا بقينا خمس دقائق في الاخذ والرد في مناظرة عقيمة .

كانت عائلتي قد وصلت قبل الحرب بستة ايام فوجدت ان لا شيء تغير في المدينة باستثناء عدم وجود السياح الذين كانوا قبلا يطوفون الشوارع او يمشون في طريق الالام . اما دلائل النشاطات العسكرية الضئيلة فكانت خارج أسوار القدس القديمة . وفي داخل القدس ما كنا لنرى سوى جنود من فرقة المواصلات يضعون الاسلاك لاجهزة هاتف الميدان ، ومخيم في مرتفع من الارض قرب باب الساهرة الذي كان دائما مركزا عسكريا .

لم تكن اية دلائل عادية — حواجز من اكياس الرمل او فوق أسطحة المنازل ، حجزتها السلطات العسكرية ، ومراكز للرشاشات ومدافع الهون ، وأكوام من الاسلاك الشائكة وغيرها من معدات الحواجز — ترمي الى اية خطة للقتال عند الحاجة داخل المدينة .

لم يسمح لي الوقت بين اهتمامي باسكان عائلتي وعملي في الجريدة بالتجول في بقية الاماكن من الضفة الغربية . فاذا كانت القدس وهي اهم ما تشتهيه أسرائيل وأكثر المدن الاردنية تعرضا من الوجهة العسكرية غير مستعدة لمجابهة هجوم اسرائيلي ، فقد قدرت ، وتقديري كان في محله ، أن اية استعدادات لم تجر في نابلس او في الخليل .

لقد احتطنا لانفسنا . ففي ليلة الاحد كان لدي الكثير من علب

الطعام والبطاريات والشموع . وكل ما بقي علي ان اجلبه كان كمية من صفائح زيت الكاز لوجاق الطبخ ومصباح الكاز للاضاءة عند انقطاع التيار الكهربائي . الشقوق في درفات النوافذ وجدران منزلنا السطحي تذكرنا بايام غابرة عندما كانت القدس ميدان حرب .

الحصار

في الساعة الثامنة والنصف من صباح الخامس من حزيران تكلم أحد ضباط الارتباط في الجيش مع القصر بالهاتف ليعلم الملك حسين ان راديو القاهرة اذاع نبأ هجوم اسرائيل على مصر . وفي الساعة التاسعة تسلم الفريق المصري عبدالمنعم رياض الذي كان قد وصل الى عمان قبل نشوب الحرب ببضعة ايام ليقود الجبهة الاردنية — تسلم رسالة بالشيفرة من المشير عامر تقول ان الجمهورية العربية المتحدة عطلت ٧٥ في المئة من الطائرات الاسرائيلية التي هاجمت المطارات المصرية ، وان جيش الجمهورية العربية المتحدة تصدى للجيش الاسرائيلي المهاجم في سيناء وانه سيقوم بهجوم معاكس . « لذلك يأمر المشير عامر بفتح جبهة جديدة على الحدود الاردنية والقيام بعمليات الهجوم وفقا للخطة التي رسمت خلال الليل » (١) .

بعد التاسعة بقليل، وانا في طريقي الى دكان البقال لاشتري وقودا، علمت من الجيران عن الهجوم على مصر وبدأ بعض اصحاب الدكاكين يقفلون . اما القدس فكانت هادئة نسبيا حين وصلت الى الجريدة خارج أسوار المدينة في الساعة ٩،٣٠ .

وكان اسحق الدزدار وبهجت ابو غربيه في المحافظة لاستطلاع الاخبار . وكان المحافظ قد طلب من الجيش تسليم الاسلحة ووعد بأنها ستسلم في اليوم ذاته . وعاد الرجلان الى المدينة القديمة لينتظرا قدوم الموظفين في مركز اركان حرب لجنة المقاومة .

في الساعة ٩،١٠ بحسب افادة تشرشل (مصدرها مذكرات الحرب الاسرائيلية) كان قائد الجبهة الوسطى الجنرال اوزي ناركس يتكلم بالهاتف من الجهة الاخرى لخط وقف اطلاق النار مع تدي كولاك رئيس بلدية القدس الاسرائيلية :

(١) نبذة مقتطفة من مذكرات الحرب الاردنية التي نشرها الملك حسين بعنوان « حربنا مع اسرائيل » .

« هي الحرب ولكن كل شيء في اليد . انك قد تصبح رئيس البلدية لقدس متحدة » .

« نحن لا نهدف الى احتلال الاراضي » قال وزير الدفاع الاسرائيلي دايان في الساعة ١٠،٤٠ في رسالة عمومية الى جيشه . « ان رغبتنا الوحيدة هي ان نزيل من حدودنا كل تهديد بالتخريب وكل خطر من الاعتداء ونحمي سلامتنا وكامل حقوقنا » ، قال اشكول بمكبر الراديو .

وقال متحدث للصحافة الاجنبية في تل ابيب والقدس الجديدة ان هجوما مصريا بدأ في الصباح الباكر من الجو وعلى الارض فنشبت الحرب وفسر عملهم ، اي عمل الاسرائيليين، بأنه « هجوم معاكس » . وفي الساعات الخمس عشرة التالية فهم الرأي العام الغربي كيف كان نشوب الحرب كما جاء في التصريحات اعلاه .

شجب الرئيس جونسون الحرب بقوله انها « تخريبية ولا لزوم لها » . وقال المتكلم باسم الخارجية الاميركية ج. مكلوسكي : « ان موقفنا محايد فكرا وقولا وعملا » . وبما ان الشعب الاميركي لم يكن قد تسلم بعد من البنتاغون تحليلا لوقائع ما قبل الحرب ، وبما ان احدا في اميركا باستثناء البنتاغون والبيت الابيض ودائرة المخابرات وفي الاكثر كبار موظفي الخارجية لم يكن بالامكان ان يعرف على الاقل بعد مضي خمس عشرة ساعة على بدء القتال ان اسرائيل حطمت القوة الجوية المصرية بين الساعة ٧،٤٥ والتاسعة بالتوقيت المحلي ، فان الرأي العام الاميركي المتوتر اغتاظ واعتبر الامر اساءة كبرى ، مما حمل البيت الابيض على ضرورة جلاء قول مكلوسكي بأنه يعني « لا تورط في حرب » بدلا من « لامبالاة » . « في الحقيقة ان اللامبالاة ليست مسموحة لنا » قال دين راسك في وقت لاحق من ذلك اليوم .

ان المزيج بين سكوت دائرة المخابرات الاسرائيلية الرزين والاخبار التي لا تصدق الصادرة عن الراديو العربي — الطيران العربي بقذف تل ابيب وحيفا بالقنابل بينما الريف الاسرائيلي دمر بنيران المدفعية والقدس الجديدة تسقط في أيدي الجيش الاردني الخ الخ — زاد في حدة التأثير . واعتبر اكثر الناس ان العرب سائرون في طريق النصر . واثر الهجوم الاسرائيلي ، خلال اربع عشرة ساعة فقط ، أعلن مراسل الاذاعة البريطانية في القدس مايك ألكنس ان الاسرائيليين هم السائرون نحو نصر مذهل .

عاد حازم الخالدي الى مكتبه — على مسافة بضع دقائق من مكتب المحافظ — عند سماعه الاخبار وهو في عيادة طبيب العيون . طلب من موظفيه ان يستمروا ليحافظوا على الملفات ويكونوا تحت تصرف

الحاكم . وفي تلك اللحظة طلب الخطيب من الخالدي بالهاتف ان يوافيه الى الديوان بسرعة .

بدأ اطلاق النار في الساعة العاشرة والثلث على طول خط الحدود بين بوابة مندلبوم وطريق نابلس . استعمل الجانبان الرشاشات وكان الرصاص يصفر في الهواء عندما كان الخالدي مسرعا في طريقه الى المحافظة . كل المحلات التجارية أقفلت وكثيرون من التجار غادروا الحي التجاري بسياراتهم الى بيوتهم في الضواحي .

خلت دار المحافظة من الناس الذين اسرعوا عائدين الى بيوتهم وبقي شرطي على باب الخطيب وبقي رجال الامن في الطابق السفلي .

وكان المحافظ يحاول ان يتصل تلفونيا بالمصرف ليسحب بعض المال لحاجات المنطقة . واخيرا اتصل بمدير البنك البريطاني للشرق الاوسط في منزله واتفق معه ان يبعث اليه بكاتبه في مكتبه الخاص للمحاماة ويسحب ٥٠٠٠ دينار اردني (١٤٢٥٠ دولارا) ليودعها رئيس الشرطة .

واختفى ايضا ضابط الارتباط بين الجيش والمحافظ وكان من ضباط الجيش . كلم المحافظ الزعيم عطا علي بالهاتف واتفقا على ان يلتحق بمركز القيادة الامامية وهي مركز الشرطة المحاط بالجدران الى الشمال من الحي التجاري والمطل على وادي الجوز .

سأل الخالدي الخطيب عن عدد الجنود الذين كانوا يدافعون عن المنطقة فأجاب : « لدينا أربعة الوية ... ماذا يكون عدد الجنود ؟ » قال الخالدي : « بين ١٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ جندي » ، لكن « هل انت على يقين من ذلك ؟ »

قال المحافظ انه متأكد لان الشريف ناصر ذكر له ذلك قبل يومين . لكن علامات القلق بدت على وجهه ، فقال له الخالدي : « لا تقلق . اذا كان لدينا هذا العدد من الجنود نستطيع ان نحتل المدينة الجديدة، واذا لم نحتلها فاننا نستطيع الثبات هنا شهرا » . وذهبا الى محلة البوليس .

كانت بلدية القدس داخل المدينة القديمة ، احسن وضعا ، وكل الموظفين ورؤساء الدوائر بقوا يعملون وكثيرون منهم بقوا طوال الليل . وخارج الاسوار بقي الموظفون مثابرين في مركز الاطفائية الى الشمال من باب الساهرة وفي محطة توليد الكهرباء والمحطات الثلاث الفرعية خارج المنطقة .

في الساعة الحادية عشرة راح المصابون الاول يصلون الى مستشفى القديس يوسف في الشيخ جراح قرب طريق رام الله . وكانت وزارة الصحة قد اتصلت قبل ايام بالمستشفيات الخصوصية جميعا واخبرتها انه في حالة نشوب الحرب تمنح المساعدات لها مباشرة

من مركز الهلال الاحمر الرئيسي . وكان ضابط من الجيش قد زار المستشفيات ليعاين الوسائل الطبية فيها . وفي الساعة التاسعة ارسل موسى البيطار بعض متطوعي الدفاع المدني ، خمسة رجال ، الى المستشفى لمساعدة الموظفين . وكان هؤلاء المتطوعون غير مدربين لكنهم شجعان . وخلال القتال كانوا يذهبون والنار مشتعلة ويجلبون المصابين المطروحين في الشوارع القريبة .

كان رئيس الجراحين في مستشفى مار يوسف الدكتور لوران كاسبار ابولينار شاعرا ورياضيا ومتبرعا لمؤسسة « ديموكراسي نوفل » (الديمقراطية الجديدة) ، وكان يطيل التفكير باهتمام في نوعية الاشتراكية العربية . وكان أكثر الاجانب رأفة وكياسة في المدينة . ولما جاء كاسبار الى المستشفى صباح ذلك اليوم وجد الدكتور د. سكرتير المجلس الطبي (الذي عينته الحكومة في وظيفة معاين في الطوارىء) في احد المكاتب مسمرا الى جانب الراديو . وبقي الدكتور د. جالسا مصغيا الى اذاعات الراديو مدى اثنتين وسبعين ساعة لا يتركه الا ليأخذ قسطا من النوم بينما كان موظفو المستشفى يعملون ليلتين وثلاثة ايام دون انقطاع خلال الحرب ويجرون العمليات الجراحية على نور البطارية الكشافة بعدما اصابت قنابل العدو مولد الكهرباء في المستشفى . وكان الدكتور د. معروفا جيدا بنظريته الوطنية القائلة انه لا حاجة الى الاطباء الاجانب في القدس .

في مركز القيادة الامامي وجد الخطيب والخالدي الزعيم عطا علي ورئيس الشرطة العقيد محمد الصريف وجاويشين من فرقة الاشارات في الجيش يركبون ثلاثة اجهزة هاتف وجاويشا من المدفعية مع شرطيين يعملون على جهاز راديو لاسلكي متصل بمركز القيادة في عمان . وكانت سيارة جيب مجهزة بجهاز راديو لاسلكي واقفة خارج المركز للاتصال بقيادة الميدان .

لم يكن مركز الشرطة محصنا . لا اكياس رمل ، ولا خنادق لتأمين سلامته . وسلم انفار الشرطة خوذا فولاذية وبنادق وكانوا يتنقلون هنا وهناك دون اوامر واضحة . وفي ساعة متقدمة من الصباح قدم الى مركز القيادة المزدحم رتل من مراسلي الصحف الاجنبية وسمح لهم بالدخول . لكن بطلب من المحافظ قاد الخالدي الصحافيين الى الخارج ووعدهم بأن يوافيهم بالاخبار بين فترة واخرى في بوابة المركز. وطلب المحافظ من الخالدي ان يعطي الشرطة اوامره بمنع الصحافيين من الدخول الى المركز .

كان الزعيم يصدر اوامره بالهاتف والبرقيات اللاسلكية لتنسيق مواقع الجنود وتنظيمها . وعلم الخالدي في دقائق قليلة بعد دخوله ان ليست لدى عطا علي خمسة الوية ولم يكن معه ضباط ارتباط

لاجل الاتصال بألوية اخرى. وكان عطا علي يدير تحركات سرايا وفصائل لا ألوية. اختلى الخالدي بالخطيب جانبا وشرح له لكن هذا الاخير، وان يكن ظهرت عليه علامات القلق، رفض ان يصدقه.

دعي الخطيب الى الهاتف وكان الملك على الخط في عمان. قال الملك انه يريد ان يأتي الشقيري الى العاصمة، فأجابه ان الشقيري واللواء وجيه مدني القائد الاعلى لمنظمة التحرير الفلسطينية تركا فندق امباسادور في الساعة التاسعة والنصف وهما في طريقهما الى عمان. اراد الملك ان يعرف كيف معنويات الشعب فأفاده الخطيب انها عالية. ولم يبالغ المحافظ اذ أن مئات الشبان كانوا يتقاطرون الى مراكز البوليس والدفاع المدني طالبين السلاح، وكانت المراكز الاردنية على ما يبدو مسيطرة على العدو في القتال بالسلاح الخفيف كما كانت بلاغات الاذاعة المصرية مفرحة. لكن لهجة الملك دلت على الغم. فقال الخالدي لانور الخطيب ان ذلك قد يعني ان ادعاءات تلك الاذاعة غير صحيحة.

قال الخطيب: «انك تنظر دائما الى الامور نظرة التشاؤم وتبالغ في الاخطار كفكرتك ان ليست لدينا خمسة ألوية».

تجادلا حول هذه النقطة والح المحافظ على الخالدي ان يتكلم بصراحة. كان الخالدي رجلا عسكريا والوقت لم يكن مناسبا للملاطفات وحالما انتهى عطا علي من مخابرته الهاتفية قال له الخالدي على الرغم من تأكيدات المحافظ لا يمكنه الاعتقاد ان في المدينة خمسة ألوية للدفاع وبيَّن له البواعث على اعتقاده. فامتقع وجه عطا علي اصفرارا وقال: «ستكون عندنا خمسة ألوية هذا المساء. هذا جزء من الخطة الحربية للدفاع عن القدس، لكننا أخذنا على حين غرة».

لواء واحد فقط من المشاة والمدفعية ومهندسي الميدان كان موزعا على منطقة القدس كخلية منقسمة على نفسها ومتمايلة هنا وهناك تحاول صد قوة اسرائيلية مندفعة في مضيق ضيق معروف بالمشى (كوريدور) نحو الضفة الغربية المتوجة بالقدس اليهودية.

كان الخط الجنوبي مشطورا في الوسط بسبب اخلاء الجيب على جبل المكبر من الجنود حيث مركز هيئة مراقبة الهدنة التابعة لمنظمة الامم المتحدة برئاسة الجنرال أود بول والنازلة في دار الحكومة. وفي اسفل هذا الخط تمركزت فرقة (٥٠٠ رجل) في سور باهر وهي قرية عالية تشرف على الطريق العام بين الطرفين الشمالي والجنوبي من الضفة الغربية.

وخصصت سرية (١٢٠ رجلا) للمدينة القديمة في النصف الاعلى من الخط الجنوبي في قرية ابو طور. ووضعت وسط الخط كتيبة واحدة — اخذت منها السرية التي في ابو طور — لحماية اسوار المدينة بين باب العمود وباب النبي داود، ونحو ٤٨٠ رجلا. ولكن سحبت من هذا

العدد شرذمة (٣٦ رجلا) لتحمي منطقة اوغوستا فكتوريا الكائنة بين جبل الزيتون وجبل سكوبوس والمطلة على المدينة ضمن الاسوار الى الشمال الشرقي.

كان الجنود في المدينة القديمة (والذين في ابو طور واوغستا فكتوريا) من جنود الاحتياط الذين تلقوا التدريب ثلاثة اشهر في أوائل الربيع ودعوا الى الخدمة العسكرية قبل الحرب قليلا. وكان برنامج التدريب قد وضع تلبية لطلب الشعب السلاح في الضفة الغربية وتدريب المدنيين عقب الهجوم الاسرائيلي في تشرين الثاني على السموع. وكان قد بوشر بتنفيذ هذا البرنامج حين نشبت حرب حزيران. وهؤلاء الاحتياطيون جيء بهم من الخليل، فكانوا غرباء يجهلون منافذ المدينة وضواحيها.

وضع داخل المدينة المسورة مدفعا هاون من عيار ١٢٠ مليمترا جيء بهما من مدفعية الهاون الثقيلة الملحقة بقيادة اللواء — واحد على مقربة من الزاوية الهندية بجوار باب الساهرة وآخر قرب حي الارمن. والمدفعية الاضافية كانت مؤلفة من ١٨ مدفع ميدان عيار ٢٥ اكثريتها مجمعة قرب قريتي عناتا وشعفاط على بعد بضعة كيلومترات من المدينة الى الشمال مع سيارات جيب مجهزة ببنادق مضادة للدبابات وملحقة بفرق المشاة.

لم توجد مدافع مضادة للطائرات في المدينة او حواليها ولا دبابات ولا مدفعية ثقيلة ولا اسلحة مضادة للدبابات اثقل من عيار ١٠٦ مليمترات التي لا ترتد بعد اطلاقها.

يبدأ الخط الشمالي الذي تحتله فرقة واحدة من باب العمود ويمتد على طول المنطقة الحرام الى بوابة مندلبوم وعلى طريق نابلس الى بناية «الأنروا» (وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين) التي كانت سابقا مدرسة تدريب الشرطة وتل الذخيرة — المركز الاردني الوحيد المحصن تحصينا قويا في منطقة القدس. كانت هذه الفرقة — فرقة الملك حسين الثانية — نخبة مجندة من الضفة الشرقية ومن الفلاحين القرويين الفلسطينيين. والى الشمال ايضا تمركزت سرية من الاحتياطي تحمي الطريق المؤدي الى القدس من رام الله في النبي يعقوب. واقل من فصيلة من المشاة كانت تحمي مركز النبي صموئيل الخطير الذي يخفر الجناح الشمالي من المنطقة بكامله.

كان قائد اللواء في مركز القيادة الامامي لكن ضباط الاركان كانوا في نقطة الاتصال بالعيزرية التي تبعد أميالا عدة الى الجنوب الشرقي. وكان لواء المشاة بكامله جزءا من جيش الضفة الغربية بقيادة الفريق محمد احمد سليم الذي كان مركزه في بيت عور قرب رام الله ويبعد اكثر من خمسة عشر ميلا الى الشمال من القدس.

في الساعة الحادية عشرة والنصف ، وبموجب اوامر من مركز قيادة الضفة الغربية ، فتح عطا علي النار على الاسرائيليين . وجوابا عن طلباته قوة جوية افادته عمان ان جميع الطائرات كانت مشتبكة مع طائرات العدو في معركة من اجل التفوق الجوي انما سترسل اليه قوة جوية في حينه . وفي ساعات قليلة وعقب هجوم سريع والقاء بعض القنابل على اسرائيل هوجمت القوة الجوية الاردنية وهي على الارض تتزود بالوقود وتحطمت . وفي الصباح الباكر طارت من الاردن بضع طائرات من نوع (ستارفايتر) الاميركية المجردة من السلاح والمخصصة للتدريب الى تركيا .

كان الجنرال أود بول يسعى في القدس لوقف اطلاق النار . بين الساعة ١١،٣٠ و ١٥،٣٠ عندما قطعت في النهاية خطوط الهاتف كان الكولونيل موري ستناوي في مركز لجنة الهدنة المختلطة قرب بوابة مندلبوم قد حاول ثلاث مرات ان يدبر وقف اطلاق النار . وكلما اتصل هاتفيا بالقيادة الاردنية الامامية كان يجيبه احد الممثلين ان طلبه يقبل شريطة ان يتوقف الاسرائيليون اولا عن اطلاق النار لانهم كانوا هم البادئين باطلاق نار المدفعية في الصباح الباكر في الجهة الشمالية . وكانت جنين تحت نيران اسرائيلية شديدة . والاسرائيليون قبلوا ايضا ولكن الضرب بقي مستمرا .

نقلت جماعة تشرشل خبرا استقته من مذكرات القيادة الاسرائيلية المركزية (الجنرال ناركس) يعطي فكرة عما حدث في صدد محاولة اود بول وقف اطلاق النار : « في الساعة الثانية عشرة طلبت الامم المتحدة وقف اطلاق النار ووافق ناركس على ذلك . وفي الساعة ١٢،١٠ خاطب ناركس باراليف (نائب رئيس اركان الحرب) قائلا : « اظن ان علينا ان نعمل . واعتبر الاردنيين يودون لو يستطيعون القول فقط انهم قاتلوا ثم يسكتون . لكنني ارغب كثيرا في ان ادخل واستولي على المراكز المذكورة » .

بعد الظهر قليلا ، كما افاد الملك حسين ، خابر عبد الناصر عمان هاتفيا والح على الاردنيين ان يكسبوا قدر ما يستطيعون من الاراضي اذ انه توقع وقف اطلاق النار في فترة وجيزة . « لقد سمعت ان مجلس الامن سيتدخل هذا المساء لينهي القتال » ، قال الرئيس المصري (١).

وبناء على افتراض ان تغطية جوية مصرية او اردنية ستتقدم حتما امر الفريق رياض اللواءين المصفحين الاردنيين بأن ينتقلا من الضفة الغربية الى الجنوب . وأمر اللواء ٤٠ في النقطة الوسطى الشمالية في منتصف الطريق بين القدس ونابلس بالانتقال الى اريحا

(١) من كتاب الملك حسين « حربنا مع اسرائيل » .

ليأخذ مكان اللواء ٦٠ الذي سينتقل الى الخليل ومن هناك يعمل نظريا كراس حربة للهجوم العربي المعاكس المحدود على اسرائيل في اتجاه بئر السبع .

ان اختيار بئر السبع كان دليلا على مقدار ما انطوت عليه فكرة الدفاع الملازمة للعرب حتى في خطة « الهجوم المعاكس » . بئر السبع هي مدخل النقب ، والنقب بدوره مدخل سيناء . فالنفاذ الاردني في بئر السبع يخفف من الضغط الاسرائيلي على القوات المصرية في سيناء ومن الممكن نظريا ان يرغم الاسرائيليين على الانسحاب سريعا (في حال ثبات المصريين) لتجنب الوقوع في خطر التطويق . لكن قبل حرب حزيران كان كابوس الاستراتيجية الاسرائيلية هو اندفاع عربي عبر السهول الوسطى من مدينتي الحدود الاردنية الخلفية ، قلقيليه وطولكرم ، اللتين لا تبعدان عن البحر سوى ١٢ كيلو مترا . ونظريا نفاذ العرب ١٢ كيلو مترا هناك يقطع تل ابيب عن حيفا والقدس الجديدة وطبريا والجليل .

بعد الساعة الحادية عشرة انتشر خبر في مركز القيادة الامامي في القدس مفاده ان الاسلحة توشك ان توزع على الشعب . وجرى تفتيش جنوني عن مختار قرية العيسويه على مقربة من منطقة جبل سكوبوس « المجردة » من السلاح . وكانت قد وضعت خطة لتسليح القرويين وحملهم على الهجوم فجأة على الارض المسدودة المسالك بين مستشفى هداسا والجامعة العبرية على قمة التلة التي تسيطر نظريا على معظم المدينة القديمة والطريق المؤدي الى رام الله . لم يكن القرويون مدربين تدريبا عسكريا لكن المدفعية كانت ستساندهم .

كان جبل سكوبوس هدفا حيويا شرعيا انما لو وقع الهجوم بحسب الخطة لكانت وقعت مذبحة .

في حرب ١٩٤٨ عندما قرر الاردنيون ان يسكتوا الحامية الاسرائيلية النشيطة المعزولة على جبل سكوبوس بنيران الهاون والمدفعية قبل ان يقتحموها قام الصخب في الصحافة الاميركية على ان العرب يضربون بقنابل المدفعية مستشفى وجامعة يمولهما الاميركان . وبدلا من الهجوم والمجازفة بجلب غضب الغرب وافق الاردن على تجريد تلك المنطقة من السلاح تحت مراقبة منظمة الامم المتحدة . وبموجب الاتفاق المعقود منح الاسرائيليون حق ابقاء شرطة مدنية هناك لحماية المعدات والابنية وجلب المؤن ومرور فرق الاسعاف عبر الخطوط الاردنية مرة في الاسبوع .

لكن رجال الشرطة كانوا جنودا ، ومنع موظفو هيئة الامم المتحدة من تفتيش المنطقة (واقل من ذلك ادارتها) وهربت اليها الذخائر

والاسلحة الثقيلة وخزنت فيها .

مساء ذلك اليوم الاول من القتال نقل جندي اردني جريح من مركز مواجه للمنطقة الى مستشفى مار يوسف فقال للممرضات : « عندما نطلق عليهم قنبلة هاون يردون علينا بأربع قنابل » .

وعند الظهيرة كانت المدفعية الاردنية في المنطقة تصيب بقنابلها سطح كنيسة دورميشون على جبل سيون حيث كان مركز عسكري اسرائيلي للمراقبة ومركز للمدفعية مغطيين تغطية قوية باكياس الرمل منذ تسع عشرة سنة .

خابر انور الخطيب بالهاتف الشيخ ا. من كبار رجال الاعمال ورئيس لجنة تموين الدفاع الشعبي ، فاخبره هذا انه لا يستطيع الوصول الى المدينة من بيته في الضاحية وسأله هل في الامكان ارسال قوة عسكرية لمرافقته . ولكن لم تكن في المدينة سيارات مصفحة ، فألح عليه انور الخطيب ان يأتي في سيارته على الرغم من خطر رصاص الاسلحة الخفيفة . ولم يقتنع الشيخ بالمجيء . وباستثناء موسى البيطار من رجال الدفاع المدني الذي نظم مركز الاسعاف واستمر يعالج المصابين الى نهاية الحرب والرجال الذين كانوا ينتظرون السلاح في مركز لجنة المقاومة داخل المدينة المسورة ، اضمحلت جميع لجان الدفاع الشعبي .

امر مركز قيادة الضفة الغربية بعد الظهر باحتلال دار الحكومة سريعا . وخاطب عطا علي قائد كتيبته في قرية سور باهر وطلب ان يأمر سراياه الثلاث بالهجوم في الساعة ١٣ ووعده بمساندته بالمدفعية في حال هجوم اسرائيلي معاكس .

طلب المحافظ من رئيس الشرطة ان يستفهم من عمان هل رئيس الوزارة عالم بهذا الهجوم . من الوجهة السياسية تخوف الخالدي والخطيب من ان هجوما على مركز المراقبة التابع لمنظمة الامم المتحدة يزود اسرائيل بمادة قوية التأثير للدعاية ويحدث رد فعل دوليا ضد العرب . وفي خمس عشرة دقيقة اجابت عمان أن رئيس الوزارة سعد جمعه كان على علم بالاوامر المعطاة للهجوم . فغضب الخالدي ولعن وشتم .

كان الهجوم عملا اعتباطيا اذ لم يكن ثمة اي تخطيط سابق له ولم تكن في القدس العربية اية دبابات او مصفحات أو مدفعية مضادة للدبابات وكل ما كان ثلاثة مدافع من عيار ١٠٦ مليمترات لا ترتد عند اطلاق النار منها مركزة على سيارات جيب .

وكان الاردنيون يتوقعون احتلال دار الحكومة فلا يلاقون الا دفاعا ضئيلا عنه او لا مقاومة البتة من قيادة الامم المتحدة ويصبحون في نصف ساعة في حالة دفاع . ولكن بعد مضي وقت قصير كان من المتوقع ان

يقوم الاسرائيليون بهجوم معاكس قوي تشق الدبابات له الطريق ، وقد تستطيع المدافع الاردنية المضادة للدبابات ان يوقف على احسن تقدير كل واحد منها دبابتين قبل ان يكتشف موقعها فيجتاحها العدو بدباباته ويحطمها .

كان الخالدي عالما بذلك ومقتنعا بأن من الحكمة ترك ذلك المركز المهم في يد هيئة الامم على الاقل الى ان يصبح الاردنيون قادرين على الدفاع عنه . وسأل عطا علي هل لديه ألغام ، وكم عددها ، فطلب الزعيم من الخالدي ان لا يدور حول الموضوع بل يبدي فكره صراحة .

فاجابه الخالدي : « اذا أخرت الهجوم الى الساعة ١٧ تستطيع ان تلغم المسالك والطرقات المؤدية الى المركز قبل مهاجمته وبذلك تؤخر هجوم الاسرائيليين المعاكس . وقد يترددون في القيام به ليلا . وبما انكم منتظرون وصول امدادات في الليل تتمكنون من وضع الجنود في مراكز قوية عند دار الحكومة فيتخندقون ويصدون هجوما معاكسا عند الفجر » .

وجد عطا علي رأي الخالدي معقولا فخابر مركز قيادة المهندسين قرب الحرم فلم يجد احدا من الضباط ، قيل له ليست لديهم مصفحات لنقل المهندسين مع الالغام . فاقترح الخالدي ان يكلف المدنيون نقل الالغام ، فالوقت كان لا يزال كافيا لوضعها . لكن عطا علي أصر على الحصول على نتائج سريعة اذ ما زال مصمما على الهجوم في الساعة ١٣ . قد يعدل الاوامر الصادرة عنه لكنه غير قادر على الغائها .

في الساعة ١٣،٣٠ كانت دار الحكومة في ايدي العرب وكل المراكز في المنطقة كانت تبلغ عن سيطرة الاردنيين في القتال بالمدفعية وبالسلاح الخفيف . واسقطت نار الرشاشات طائرة استكشاف اسرائيلية كانت تحوم على علو منخفض في منطقة اوغوستا فكتوريا وتحطمت .

قلت البلاغات من رئاسة الشرطة في عمان ، لكن كان راديو عمان يذيع ان المدفعية البعيدة المدى في طولكرم كانت تطلق قنابلها على تل ابيب ومطار اللد ، وان ٤٠ طائرة اسرائيلية اسقطت فوق الاراضي الاردنية و ١٨٩ (بحسب البلاغات المصرية) اسقطت فوق مصر . فعم الابتهاج جو القيادة الامامية .

لكن المصادر الاسرائيلية المفوضة التي كان في مصلحتها ان تبالغ في مدى تأثير نيران المدفعية الاردنية ، اذ ان في ذلك تبريرا مفترضا لاحتلال الضفة الغربية ، ابلغت ان قنبلة واحدة فقط سقطت في منطقة تل ابيب وانها لم تطلق الا الساعة ٢١ من يوم الاثنين . وبعد أكثر من سنة بعد الحرب افاد مراسل جريدة « جروزاليم بوست » في لندن عن دراسة اجراها المايجر د. د. كامبل عن استعمال المدفعية في حرب

حزيران لجريدة المدفعية الملكية الرسمية جاء فيها :

« ان الخبير البريطاني بالمدفعية استغرب غاية الاستغراب تصرف المدفعية الاردنية في الجبهة الوسطى حيث لم تستفد من فرص ثمينة سنحت لها . عند بدء القتال كانت كل قواعد الطيران الاسرائيلي ضمن مدى المدافع الاردنية ذات العيار ١٥٥ ملليمترا فلو ضرب الاردنيون هذه الاهداف الحيوية لكانوا انزلوا الدمار بالطائرات الاسرائيلية عند عودتها لتتزود بالوقود . انها فرصة اضاعوها ولو استفادوا منها لكانوا غيروا مجرى الحرب » .

ولا تقل غرابة عن ذلك التقارير عن الاوامر التي تلقاها في الصباح الاول من الحرب قسم المدفعية الملحق بلواء الامام علي من المشاة في خان الاحمر شرقي القدس لينسحبوا من مراكزهم المهيأة وينتقلوا الى « مراكز افضل للضرب » . وبعد الظهر حين بدأت معركة المدفعية بصورة جادة تبددت مدفعية الامام علي الموجودة في مراكز معرضة للعطب وغير المهيأة سلفا .

لم يصب احد من موظفي الامم المتحدة عندما احتل الاردنيون دار الحكومة . وبحسب افادة قائد الفرقة نقلوا جميعا الى الطبقة السفلى لتأمين سلامتهم ، ووضع جهاز هاتف في يدي احد موظفي اود بول ليخاطب المحافظ ، فاعلمه هذا ان موظفي الامم المتحدة يكونون في مأمن في ايدي الاردنيين . واعرب انور الخطيب عن اسفه اذ انه لم يكن في امكانه ان يأتي اي عمل آخر لهم الا ان يقترح عليهم ان افضل طريقة للاحتجاج هي بواسطة مكتب ممثل الاردن في لجنة الهدنة المختلطة .

في الساعة ١٥ قامت فرقة من الدبابات الاسرائيلية مع وحدة من المشاة من اللواء المحلي بالهجوم المعاكس . اثنتا عشرة دبابة اتجهت ضد مركز سور باهر واثنتا عشرة ضد دار الحكومة . وانسحبت على الفور بقية الكتيبة الاردنية في سور باهر الى التلة المجاورة اذ لم يكن لديها سلاح مضاد للدبابات وكان الاسرائيليون قد قطعوا الطريق المؤدي الى بيت لحم . بيد ان الهجوم الاسرائيلي على دار الحكومة مني بالفشل ، اذ تحطمت اثنتان من دباباتهم واصيبت ثلاث . وفي المقابل محقت سيارات الجيب الاردنية الثلاث التي كانت تحمل المدافع التي ترتد . وفي نصف ساعة تحركت ست دبابات اسرائيلية من الاثنتي عشرة التي احتلت سور باهر لتجدد الهجوم على دار الحكومة . وفي الساعة ١٥،٤٥ كانت تطلق قنابلها عليها بشدة .

وقع القائد الاردني في مأزق ، فالاصابات التي مني بها رجاله ادت الى انسحابهم ، وموظف اللاسلكي قتل ، والمركز يوشك ان يطوق .

« اثبتوا في مراكزكم » كان عطا علي يقول للقائد تكرارا بالهاتف ويجيبه هذا : « لست قلقا على نفسي أو على جنودي من مجابهة الموت

ولكن ما العمل في شأن هؤلاء المساكين التابعين للامم المتحدة ؟ لو استطعت ان أخرجهم من هنا ولو بتسليمهم لليهود ، فاني اموت في مكاني » .

أخرج قائد الفرقة اثنين من رجاله رافعين علما ابيض للتفاوض لكن الاسرائيليين اطلقوا عليهما النار .

وفي مركز القيادة الامامي كان عطا علي يخطو ذهابا وايابا في أرض الغرفة مرددا : « ماذا استطيع ان افعل ؟ على الجنود ان يثبتوا » فقال له الخالدي : « قل للقائد استعمل ادراكك » فاجابه الزعيم : « اذا قلت له ذلك ينسحب » .

وهكذا انسحب القائد شرقا بمساعدة شرذمة من الاردنيين هاربين من باب الدار الخلفي هو ورجاله . ولما تجمعت وحدته ثانية ابلغ انه خسر ١٣٩ رجلا من ٤٠٠ بين قتيل ومفقود . وكان عدد من رجاله اما ضلوا طريقهم وأما فروا عندما سقط الموقع .

في ساعة باكرة بعد الظهر تسلم بهجت ابو غربيه ٢٦٠ بندقية « انفيلد » و ٢٠ رشيشا « ستن » و ٢٠ رشاشا « برن » مع ذخائر في مركز سري للسلاح تحت ادارة لجنة المقاومة . وزع بعض هذا السلاح في الضواحي القريبة التي كانت تحت الخطر ولم يوزع شيء منه تقريبا داخل المدينة المسورة حيث كان الالوف ينتظرون ، وجزء من هذه الارسالية احتفظ به ليوزع فيما بعد تحت جنح الظلام على بعض القرى النائية في المنطقة التي عزلت عن المدينة بنيران الاسلحة الخفيفة والمدفعية . ووزع الجيش مباشرة مئة قطعة سلاح اضافية في كميات صغيرة على بضعة مراكز مدنية في القدس وفي ابو طور . جيء بهذه الاسلحة من مخزن السلاح العسكري في المدينة القديمة . ووعد الجيش بان يرسل الى اللجنة الف قطعة اضافية من السلاح في توافل مع الامدادات بعد غروب الشمس .

في الوقت ذاته تقريبا حين تحركت القوات الاسرائيلية لمهاجمة دار الحكومة فتح الاسرائيليون النار بالمدفعية الثقيلة ومدافع الهاون الثقيلة على اهداف اختاروها خارج اسوار المدينة . ووقعت بعض القنابل قريبة جدا من مركز القيادة الامامي . وهرول عزالدين التل ركضا من محطة الراديو وافاد أن البناية أصيبت والمحطة نسفت . وكان السبب في قلق التل ان الاسرائيليين تثبتوا بواسطة نظارات الميدان عن بعد من موقع المحطة بالضبط فاصابوها بالقنبلة الاولى . وتوجه التل الى رام الله ليرى ما يمكن عمله بواسطة جهاز الارسال للاذاعة بينما الموظفون في القدس انشأوا استوديو الطوارىء في الطابق

السفلي وفي مدة وجيزة من الوقت استؤنف البث .
ذهبت بعد الظهر مسرعا الى المحطـــة ووصلت اليها عندما كان الرجال يمسحون الشحم الواقي عن الرشاشات التي ارسلها الجيش . وكانت الفتيات الموظفات يضعن الخرطوش في المشابك التي كـــان الجيش ارسلها مع الاسلحة . وكانت شرذمة من حاملي الرشاشات على السطح لحماية البناية (سحب هؤلاء الجنود فيما بعد الى الخط الامامي) كذلك كان بضعة رجال مسلحين من المدنيين في حفر في الحديقة الامامية .
اكثر الرجال كانوا غير مدربين تدريبا عسكريا .
لم ترسل المحطة الرئيسة في عمان اية تعليمات او بلاغات رسمية بالهاتف لاذاعتها باللغة الانكليزية . وكل ما استطـــاع الموظفون ان يفعلوه كان ارتجالهم لمقاطع خطابيةلبثها بين مختـــارات من الموسيقى الحربية وقصفات مسجلـــة من الرشاشات التي اعتبرهـــا احدهـــم الوسيلة الفعالة لالقاء الذعر في الاسرائيليين .
لم تكن هناك أية اكياس رمل لتخفيف وطأة القصف عن البناية .
وقبل ان تجولنا انا والتل في ارجاء المحطة كان الرجال قد اتخذوا مراكز لاطلاق النار وراء النوافذ المقفلة غير المشرطة والمشبكات المعدنية .
طلبت من مكتب جريدتي بالهاتف ان يرسل الى المحطة نسخة عن نشرة الانباء التي تلقاها بواسطة « التليبرنتر » لنستعملها الى ان تردنا البلاغات من عمان فقيل لي ان شخصا في المكتب اوقف الجهاز توفيرا للورق . وكان مكتب التحرير التابع للجريدة يبعد مئة ياردة عن جبهة القتال . وفي نصف ساعة هرول مدير التوزيع عبد الغني الى محطة الراديو عبر الحي التجاري ورصاص الرشاشات يلعلع فوق الرؤوس وجلب لي نسخة عن الانباء .
وقبل غروب الشمس قليلا خف اطلاق النار فجأة . كان الناشر واكثر الموظفين قد بقوا في مكتب الجريدة طوال النهار في انتظار وصول الاسلحة . والآن على الرغم من فترة الهدوء في المدينة بقي اطلاق النار مستمرا على الطريق المؤدي الى الضاحية شمالي المدينة حيث كان يسكن الموظفون فمشيت واياهم الى الفندق الوطني (لا يبعد كثيرا عن مركز القيادة) لقضاء تلك الليلة ثم رجعت الى المدينة القديمة .
كان في الفندق نحو ستة مراسلين اجانب وعدد من الصحافيـــين المحليين . وعلى اساس الاذاعات من الراديو عن جو المعركة كان الجميع لا يزالون يظنون ان العرب هم الرابحون .
وفي مركز القيادة الامامية القريب اتى رجال يحملون احد الاعيان وهو رجل متقدم في السن ــ يشكو من داء النقرس ــ وكان مرتديا بنطلونا لركوب الخيل وحاملا بندقية ومسدسات وخنجرا ، ويصرخ :

« سنتعشى الليلة في تل ابيب » .

لكـــن في الساعة ١٧ بـــدأ اللواء الاسرائيلي المصفح في قيادة الكولونيل اوري بن ــ آري يهاجم الاخاديد الجبلية شمالي القدس التي كان الدفاع فيها يكاد معدوما ، ما بين المدينة ورام الله والتي تعتبر مفتاح السيطرة على منطقة جبال القدس بأسرها . وفي الحرب العالمية الاولى قتل الوف من الجنود الاتراك والبريطانيين في المعارك لاحتلال الموقع المتقدم في هذه الاخاديد وهو موقع النبي صموئيل الذي كان يحمي مؤخرة المواقع الاردنية في اللطرون حيث الخط العربي يدخل في اتجاه المر الاسرائيلي نحو القدس الجديدة .
كان الاردنيون قد لغموا المسالك ولكن المواقـــع في الشيخ عبد العزيز وبيت اكسا والنبي صموئيل اما كانت قد أخليت وأما كانت محمية بالجنود القلائل . وبدأ الاسرائيليون يزيلون الالغام بعد الظهر وعنـــد منتصف الليل كان من المفروض ان تكون دباباتهم وصلت داخل الاراضي الاردنية .
لم يعرف شيء عن هذا في مركز القيادة الامامي في القدس . فمن الخفايا الجسيمة في هذه الحرب في الضفة الغربية تلك الصورة من الفوضى في المواصلات الصحيحة التي انعكست خلال المعركة القصيرة في تجسيم عدد الاصابات التي كان ينقلها القـــادة الاردنيون الى القائد المصري العام الفريق رياض في مركز القيادة في عمان .
الا ان الخالدي كان قلقا من شدة قصف المدفعية الاردنية في المدينة . كان قلقا من ناحية الذخيرة والسهولة التي رافقت الضبط في معرفة الاسرائيليين مواقع المدفعية الاردنية القليلة العدد في المنطقة آنذاك .
طمأنه عطا علي الى ان الذخيرة وافرة ، وأن المزيد منها ينتظر وصوله في المساء ، وان مواقع المدفعية كانت محمية جيدا . ولم يكن الزعيم متخوفا من ان في استطاعة الاسرائيليين تحطيـــم مدفعيته .
فناقشه الخالدي قائلا : « لا يكفي ان تكون مواقع المدفعية محصنة اذ من الممكن ان يعرقل وصول الذخيرة والرجال » . لكن الزعيم ، ذلك البدوي البدين القوي البنية الذي لا يكاد يكون متعلما والذي شق طريقـــه في الترقي من جندي بسيط خلال سنوات عـــدة من خدمة مخلصة ، اعتبر هذا الضابط الذي كان من ضباط الاركان الفلسطينيين في الحرب العالمية الثانية مدعيا متحذلقا . وعند الفجر من صباح الثلثاء (٦ حزيران) لم يكن قد بقي موقع مدفعية اردنية واحد في المنطقة .
جاء مختار قرية العيسوية الى مركز القيادة بعد الغروب وافاد انه اضطر حيال قصف النار الشديد ان يدور حول المدينة النهار بطوله حتى تمكن من بلوغ المركز . وقـــرر عطا علي تأجيل تسليح القريـــة

ومهاجمة جبل سكوبوس الى اليوم التالي .

ما ان ازفت الساعة ١٨ حتى كانت جميع الخطوط الهاتفية مقطوعة ، وفي الساعة ١٩،٣٠ تحطم جهاز البث في رام الله فتوقفت محطة القدس عن الاذاعة . وتقطعت ايضا الخطوط الكهربائية لكن الفريق المحلي في شركة الكهرباء استطاع الخروج من المدينة تحت النار واجراء التصليحات .

وعند العشية تمركز كل امل لدى القيادة الامامية حول فكرة قدوم النجدة المؤلفة من اربعة الوية . وبقيت معنويات الشعب عالية ، واستمر قدوم المتطوعين الى مركز الشرطة طالبين تزويدهم بالسلاح وايضا الى مراكز الدفاع البوليسية والمدنية في القدس وحولها فيقولون لهم لا وجود للسلاح .

بحث عطا علي والخالدي في الحالة ، ففكرا ان الامدادات اذا تجمعت في اريحا بعد غروب الشمس يلزمها ساعتان لتنظيمها في الطريق وساعتان اضافيتان اذا وقع خطأ في التوقيت . لذلك فمن المتوقع ان تصل بين العاشرة مساء والواحدة بعد منتصف الليل وتبقى على الاقل ثلاث ساعات لتوزيعها قبل الفجر .

كان مركز البوليس ومركز القيادة الامامي (النقطتان الوحيدتان المحصنتان) تحت قصف شديد من المدفعية فلجأ الثلاثون شرطيا الى الملجأ الصغير تحت الارض . لم يكن ثمة شخص يعلم رجال الشرطة كيف تحفر الخنادق وحفر الوقاية . الخالدي وبعض انفار من الجند اخرجوهم من الملجأ المزدحم ازدحاما هائلا . وبعد خمس ساعات حاول رجال الشرطة ان يرجعوا الى الملجأ على الرغم من الاوامر مما يشبه بصورة محزنة مريعة لعبة « حاوريني يا كيكا » . واخيرا ارغموا على حفر الحفر .

تصاعد الغم وانقباض النفس في مركز القيادة الامامي الا ان المعركة الحقيقية لم تقع بعد . واصبحت المواصلات خارج المدينة ممكنة باللاسلكي فقط . كررت عمان قولها ان الامدادات آتية لكن مركز القيادة الامامي لم يستطع الاتصال بمركز رئاسة قيادة الفريق سالم في الضفة الغربية . ذلك بانهم عرفوا فيما بعد ان موظفي رئاسة الجيش المسؤولين عن قيادة القوات الاردنية كافة في الضفة الغربية كانوا انسحبوا الى عيون الديوك الاكثر قربا من النهر بعد غروب الشمس في تلك العشية . (اخلي هذا المركز في الصباح التالي وبعد ظهر الثلاثاء كان الفريق سالم في مركزه الجديد في الضفة الشرقية) .

نحو الساعة ٢١ شوهدت اضواء كاشفة تتساقط على مسافة تتبعها اصوات انفجارات قنابل وراء جبل الزيتون ، فقد كان الطيران الاسرائيلي يحطم قافلة الامدادات — فوج دبابات اخذ من اللواء المصفح

٦٠ وكتيبة واحدة من المشاة (كل من تبقى في خان الاحمر من لواء الامام علي المشاة) .

كان جزء كبير من لواء الامام علي قد انفرط من جراء الفوضى التي حدثت في اليوم الاول من القتال . نحو الظهر أمرت كتيبة أسامة بالتوجه الى القدس لنجدة الوحدات الاردنية في سور باهر التي كانت تستعد لمهاجمة دار الحكومة . لكن راديو عمان افاد ان الاسرائيليين كانوا قد استولوا على دار الحكومة قبل ان تتحرك الكتيبة بوقت قصير من خان الاحمر فتعرض لها السلاح الجوي الاسرائيلي في الطريق وسحقها . ووصل في ساعة متقدمة بعد الظهر بعض افراد هذه الكتيبة المبعثرة الى سور باهر .

في وقت قصير بعد ان تحركت كتيبة أسامة أمر قائد لواء الامام علي بأن يرسل كتيبة ثانية الى القدس لتشترك في الهجوم المنوي القيام به على جبل سكوبوس . ثم تبدلت الاوامر فأوقفت قرب العيزرية وانتظرت هناك دون تغطية فسحقها السلاح الجوي الاسرائيلي بسهولة.

وفي خصوص البقية الباقية من اللواء ٦٠ المصفح أمرت هذه بالبقاء في منطقة اريحا (برغم انها كانت استبدلت باللواء ٤٠ باكرا في النهار) لما شعر الجنرال رياض بازدياد الضغط على محور القدس — اريحا كذلك الضغط الاسرائيلي المصفح على مسافة بعيدة الى الشمال.

حوالي الساعة ٢٣ هدأت الحالة شرقي القدس وما عاد يظهر لمعان الانفجارات في الجو . وافادت رئاسة قيادة اللواء في العيزرية عطا علي أن قافلة النجدة سحقت فتأثر الزعيم تأثرا عميقا فنصحه الخالدي ان يطلب نجدة من لواء حطين الى الجنوب في منطقة بيت لحم — الخليل ، ونجدة من لواء المشاة في الشمال ، فافادته القيادة ان اللواء في الخليل كان يتأهب للهجوم ولا يمكنه ان يتحرك وكذلك لا يمكن تحريك الوحدات المحتفظ بها احتياطيا في منطقة رام الله .

عند ذلك اضطرب الزعيم الى درجة قصوى فتسلم الخالدي القيادة بصورة موقتة غير رسمية . وكان لاسلكي المركز يعمل فقط على ذبذبات لاسلكي الشرطة ولم يستطع ان يذيع على موجات لاسلكي رئاسة الجيش في عمان فقال الخالدي لعطا علي ان يطلب من قيادة لواء العيزرية ان تبلغ رئاسة الجيش في عمان ان كل الجنود في القدس اشتركوا في القتال ولا يمكنهم الثبات اكثر من ٤٨ ساعة .

كان في استطاعة لواء من المشاة الاحتياطيين المحتشدين حول اريحا ان ينتقل بأسرع ما يمكنه والى ابعد مسافة ممكنة بسيارات النقل ثم مشيا وبسرعة — لتجنب قطع الطريق عليه من الطائرات الاسرائيلية — كان في استطاعته ان يصل الى المدينة في الصباح . كان جواب عمان ايجابيا مما جعل مركز القيادة الامامي يعيش مجددا على الامل .

ولم يكن احد داخل المدينة القديمة يعرف اية درجة من الخطورة والقنوط وصلت اليها الحالة . وفترات توقف اطلاق النار كانت تحير الافكار . وكان موظفو لجنة المقاومة قرروا مغادرة مركز الرئاسة والذهاب الى بيوتهم على ان يعودوا في الصباح الباكر آملين أن تكون الاسلحة قد وصلت . ونام الدزدار وابو غربيه تلك الليلة خارج أسوار المدينة . وقبل الفجر قطعت عليهم طريق العودة . ومنذ صباح الثلاثاء الباكر صارت المقاومة في المدينة امرا شخصيا دون تنظيم فقتل على الاقل مئة مدني مسلح وهم يقاتلون في وادي الجوز وعلى اسوار المدينة او كقناصة منعزلين مختبئين في الدقائق الاخيرة من المعركة .

بقي الخادم احمد الذي كان يشتغل في الجمعية الاسلامية في جوار بيتي مع عائلتي حتى رجوعي في المساء . وكان قد جلب بعض الفرش والمؤونة الى ثلاث غرف صغيرة فارغة مدعومة جيدا (كانت فيما مضى غرف منامة لخدم المفتي) قرب حائط الدرج بين الشقتين في بنايتنا استعملناها كملجأ في تلك الليلة ثم في الليلة التالية . وكنا نعود الى الشقة خلال فترات القتال خارج الاسوار .

في مدينة جديدة مفتوحة تحت الهجوم يقرب صوت المعركة ويبتعد كصوت السيل في البر . انما داخل المدينة القديمة خلال الست والثلاثين الساعة التالية ــ جزأت وقتي بين وجودي في الملجأ وزياراتي لمراكز الدفاع المدني ماشيا في شوارع فارغة الا من دوريات عرضية او زمر من الدفاع المدني مهرولين وفي ايديهم صناديق الذخيرة نحو الجزء المهدد من السور ــ كان شعوري يشبه الشعور المشوه في القرون الوسطى او الشعور المضحك السخيف الذي يستولي على حامية قديمة التجهيز محاصرة في حرب تستعمل فيها الطائرات النفاثة ذات السرعة الاسرع من الصوت وقنابل النابالم المحرقة والدبابات .

بعد الساعة ٢٣ قليلا فتح الاسرائيليون النار بكل ما عندهم من مدافع الهاون والمدفعية الثقيلة بينما كانت الانوار الكشافة من المدينة الجديدة وجبل سكوبوس تفتش عن اهداف لنيرانهم . وكانت الساعة قد تقدمت بعد منتصف الليل حين لاحظ مراقب على سطح مركز الشرطة قرب مركز القيادة ان الانوار الكشافة بدأت كلها تصوب الى نقاط في اراض غير مأهولة ولا تتحول عنها دقائق بين آونة واخرى دون ان تطلق عليها النيران . وكان الغرض ايجاد اماكن لانزال الجنود من طائرات الهليكوبتر . وفي خمس عشرة دقيقة افاد أناس من وادي الجوز ، مركز القيادة الامامية ، ان قوة صغيرة من جنود المظلات

المحمولين على طائرات الهليكوبتر هبطت على منحدر فوق وادي الجوز في محاولة لمهاجمة مراكز الحدود على طريق نابلس وبناية وكالة غوث اللاجئين التابعة لهيئة الامم وتل الذخيرة . اربعون رجلا من الجنود المظليين على الاقل هبطوا وراء الخطوط الاردنية على اربع دفعات . وكانت أصوات محركات طائرات الهليكوبتر تسمع حتى في مركز القيادة الامامي (١) .

امر عطا علي فصيلة الجنود على « تل الذخيرة » بالذهاب الى الارض المحرجة شمالي المقبرة البريطانية العسكرية على جبل سكوبوس لتقطع الطريق على رجال طائرات الهليكوبتر الذين كانوا يتقدمون . وارسلت زمرة من المدنيين المسلحين الذين كانوا يعملون دون تنسيق مع الكتيبة الثانية المحافظة على الخط الشمالي المهدد ، الى وادي الجوز لتطلق النار على جناح المظليين . وحالا توقف المظليون عن السير وجمدوا في مكان لا يبعد كثيرا عن مستشفى القديس يوسف بسبب نيران الفصيلة الاردنية التي اعترضتهم .

في الساعة ٨،١٨ من صباح الثلثاء ، اصبحت الحالة لا تطاق في مركز القيادة الامامي . واستمر القصف بالمدافع على مركز الشرطة واصبح استعمال القوة الجسدية ضروريا لطرد رجال الشرطة خارجا . واستولى غضب شديد على المحافظ من جراء المشهد حتى انه هرع خارجا من المركز ودخل مركز الشرطة المهجور فتبعه الخالدي وسار معه لحراسته الى فندق ريتز على مسافة مئة ياردة حيث حاولا ان يناما بعض الوقت .

في الساعة ٨،٢٠ باشرت فرقة المظليين الاسرائيليين هجومها على الخط الشمالي وصبت نار المدفعية على المواقع الاردنية وتحركت كتيبتان اسرائيليتان الواحدة نحو الارض المحيطة بمبنى وكالة غوث اللاجئين ، والثانية نحو مواقع الدفاع على طريق نابلس عبر الارض المجردة من السلاح وراء الدبابات . وكانت الانوار الكشافة تمكن السلاح الجوي الاسرائيلي من مساندة الجنود عند مبنى وكالة غوث اللاجئين وتل الذخيرة وضرب الخطوط الاردنية .

كلما ظهرت الطائرات الاسرائيلية في الجو سواء لتضرب

(١) لم يذكر شيء عن هذا الاجراء في الكتب والمقالات الانكليزية المرتكزة على مصادر اسرائيلية عسكرية التي قرأتها بما فيها العدد الرسمي السري الذي اصدرته وزارة الدفاع الاسرائيلية عن حرب الستة الايام . قد يكون التكنيك المتعلق بغارات الهليكوبتر والذي استعمل في هذا الشكل الدراماتيكي وراء خطوط وقف اطلاق النار بعد حرب حزيران من المواد التي وضعت جانبا في الملفات .

تحصينات المشاة او لتضرب بالصواريخ والقنابل مواقع المدفعية يقابلها الاردنيون بكل ما لديهم من الرشاشات وبنادق اوتوماتيكية فتمر رصاصاتها كالاقواس فوق المدينة القديمة واوغستا فكتوريا او كألعاب نارية .

كان الصوت يصم الآذان ، وعلى بعد ميل في قلب المدينة القديمة ظننت ان الاسوار قد هوجمت .

استيقظ الخالدي حين بدأ الرصاص يلعلع فوق المدينة واتصل هاتفيا بمركز القيادة . قال عطا علي ان الحالة تدعو الى اليأس . وخرج المظليون الاسرائيليون من مكمنهم ومشوا نحو وكالة الغوث في الدقيقة نفسها عندما اوشك خط الدفاع على طريق نابلس ان يكون عرضة للاجتياح .

كان عطا علي مخطئا . فان تلك الكتيبة الاردنية (مع عدد قليل من المدنيين المسلحين) التي تنحى عنها كثير من ضباطها استمرت تقاتل خمس ساعات على الرغم من النيران الحامية من المدفعية والدبابات والقصف الجوي وتقدم فرقتين ثم ثلاث من المظليين الاسرائيليين في نقطتين من التجمعات . ولما تفوقت نار اسلحة الاسرائيليين الخفيفة التي تمتاز على اسلحة الاردنيين ، ثبت هؤلاء في خنادقهم واوكارهم وقابلوا هجمات الاسرائيليين بحرابهم وردوهم الى الوراء الى ان نسفت اوكارهم في النهاية بالديناميت او قنابل المدفعية والدبابات واجتيحت خنادقهم .

ما بين بوابة مندلبوم وعلى طول خط طريق نابلس وبنايتي وكالة غوث اللاجئين وتل الذخيرة ، اصبح خط النار مائعا . فكان الاسرائيليون يتدفقون عبر الخط الاردني فيقطعهم في الشوارع الجنود العرب والمدنيون المسلحون الذين انسحبوا الى مراكز جديدة في الوراء على سطوح ونوافذ البيوت المجاورة .

في كل مكان آخر من الضفة الغربية وفي سيناء ومرتفعات الجولان كانت حركات « القبضة الفولاذية » الاسرائيلية السريعة المفاجئة المؤلفة من المصفحات والدبابات والمشاة التي كان يشق لها الطريق القصف الجوي تخترق الصفوف العربية مما حطم معنويات الجنود المنظمين ورجال المقاومة المدنية غير المنظمين واخترق الهجوم الاولي الجبهات العربية الامامية خارج المدن .

اما في القدس فجغرافية الحدود الضيقة التي وضعتها هدنة ١٩٤٩ كانت تعني ان الاسرائيليين وجدوا انفسهم مضطرين الى ان يواجهوا في الخط الشمالي وعلى طول حدوده جنودا نظاميين وأفرادا مدنيين مسلحين في مقدورهم ان ينسحبوا من خطهم المثقوب الى الوراء ليقاتلوا في نقطة مجاورة مأهولة . هنا بحسب قول وزارة الدفاع

الاسرائيلي كان « المسرح اعنف قتال في الحرب » . وهنا بلغ عدد الضحايا من الاسرائيليين الحد الاعلى نسبيا عندما دار القتال من بيت الى بيت .

وسمى الاسرائيليون طريق نابلس « زقاق الموت » . كانت نيران الدبابات توجه الى القناصة الاردنيين حيثما كان ذلك ممكنا . وفي البلبلة التي سادت القتال وجهت الدبابات الاسرائيلية نيرانها ضد القنصلية الاميركية عند تقاطع الطرق قرب بوابة مندلبوم وطريق نابلس فاصابتها بسبع طلقات مباشرة .

تمدد ضابط الاعلام الاميركي ونائب القنصل في ارض الطابق الاول من البناية وغطيا رأسيهما بطناجر المطبخ . ولما انتهى القصف هرولا الى النافذة وشاهدا في تلك اللحظة المظليين يضعون عبوة من الديناميت تحت البوابة الامامية فالتفا بعلم اميركي كبير وخرجا الى الحديقة حيث التقيا بالاسرائيليين وهم يقتحمون ارض القنصلية . طلب المظليون الاذن ليدخلوا البناية ويفتشوا عن القناصة الاردنيين فسمح لهم . وبحسب معلوماتي الشخصية لم يطلب أي نائب في الكونغرس الاميركي تدخل السلطات الاميركية لحماية الرعايا والممتلكات الاميركية (١) .

قضت الطائرات الاسرائيلية على المواقع القليلة الباقية من المدفعية الاردنية التي كانت خففت من حدة الهجوم بعد الفجر قليلا . وحطم مدفع هاون اردني كان يشغله ثلاثة رجال في ردهة مفتوحة وراء « سينما القدس » في حي باب الساهرة التجاري بصاروخين . كان هذا الموقع يطلق النار دون انقطاع منذ ساعة متقدمة من صباح الاثنين وكانت لديه كمية وافرة من الذخيرة،لكن الجنود أرسلوا الى القتال دون طعام وماء (يظهر ان هذه كانت القاعدة التي فرضت على اللواء المدافع عن القدس بكامله) فكان الناس في الجوار يقدمون الطعام الى الجنود .

ومحق آخر موقع للمقاومة الاردنية على طريق نابلس — محطة الغاز شازاك قبالة القنصلية — بواسطة سبع دبابات اسرائيلية استمرت بعد ذلك سائرة نحو باب العمود واطلقت النار على المواقع

---

(١) خلال حرب حزيران هاجمت النسافات والطائرات النفاثة الاسرائيلية باخرة المواصلات الحربية الاميركية « ليبرتي » على مسافة خمسة عشر ميلا من شاطىء سيناء وقتل اربعة وثلاثون رجلا من بحارتها . واذاعت وكالة الانباء « يونايتد برس » (٣٠ تموز ١٩٦٧) نبأ يقول ان الكابتن وليام ماكنايجل اخبر الصحافيين انه حالا بعد ذلك الهجوم رأى نسافات متجهة نحوه في أقصى السرعة فاصدر اوامره الى رجال الرشاشات ليطلقوا . وقال ايضا انه ظن اولا ان هذه كانت مصرية ولما رأى من بعد العلم الاسرائيلي حاول الغاء الامر باطلاق النار لكن الرشاش الامامي كان قد بدأ رشها برصاصه .

الاردنية على السور من مسافة قريبة . ورد الجنود والمدنيون العرب النار من على السور في شدة فاضطرت الدبابات الى الانسحاب للالتحاق بحملة المظليين الرئيسية قرب المتحف الفلسطيني .

حول الاسرائيليون فندق امباسادور الى مركز قيادة الجيش . وبعد اشهر عدة شرح الحاكم العسكري الاسرائيلي في مقال نشره في جريدة « جروزاليم بوست » كيف أن الجيش كان ينوي احتلال هـذا الفندق ليجعله مركز قيادة الجيش منذ ١٩٥٦ حين اتخذت الاجـراءات لاحتلال المدينة القديمة لو دخل الاردن الحرب الى جانب مصر .

وبقيت مدافع الميدان والهاون الاردنية المتمركزة في بيت حنينـا في منطقة شعفاط تعمل طوال الليل الى ان اسكتتها قنابل النابالم المحرقة الاسرائيلية . وقبل نهاية معركة القدس كان الاسرائيليون يطلقون قنابل النابالم على مواقع الشيخ جراح وجبل المكبر وسور باهر واوغوستا فكتوريا وجبل الزيتون ورأس العمود ومنطقة بيت لحم وعلى عدد من القوافل على طرق الضفة الغربية .

في الساعة الخامسة من صباح الثلثاء شاهدت امرأة عـربية على الطريق قرب بيت حنينا دبابات سائرة نزولا نحو طريق رام الله من بيت اكسا وظنا منها انها عراقية هتفت لها : « الله ينصركم » فأجابها الجنود من الدبابات صارخين باللغة العبرية : « روح من هون » بينما الكلام اذا وجه الى امرأة يجب ان يقال : « روحي » فعرفت المـرأة انهـم يهـود .

في الصباح كان اللواء الاسرائيلي المصفح بكامله الذي اخترق خط الحدود الجبلية عبدالعزيز ـ النبي صموئيل الى الشمال قـد احتـل بيت حنينا دون مقاومة وتمركز على جانبي الطريق الشمالي الجنوبي العام الذي يسيطر على جميع الطرق المؤدية الى الشمال من رام الله والجنوب من القدس العربية والشرق من أريحا .

في الوقت ذاته انفصل طابور من الدبابات وفرقة آلية من المظليين، وكلاهما كانا أصلا ملحقين باللواء المصفح ، واحتلا نتـوء اللطرون الى الغرب من القدس . كان اللطرون قبل ١٩ سنة مسرحا لاخطر قتال دفاعي قام به الجيش العربي عندما صدت كتيبتان متمركزتان في خنادق تشرف على السهول هجمات اسرائيلية عدة قامت بها ألوية بكاملهـا وانزلتا بها خسائر فادحة في سلسلة من المعارك من اواخر أيار الى منتصف حزيران ١٩٤٨ . وفي السنين التي تلت حصَّن الاردنيون هذه المواقع الدفاعية .

لكن في هذه المرة ، كما أفاد الرهبان اللاترابيون الذين يطل ديرهم

على موقع الاردنيين، انسحب الجيش الاردني عند غروب شمس الاثنين دون ان يطلق طلقة . ولما زحف الطابور الاسرائيلي الى اللطرون في الصباح كانت المواقع الاردنية غـير محمية الا مـن المليشيا الذيـن سحبوا ارتجـالا من القرى المجـاورة يساندهـم بعض الكومندوس المصريين الذين كانوا قد وصلوا الى الاردن في الليلة السابقة لنشوب الحرب . وقد تغلب الاسرائيليون على هذه المقاومة بسهولة نسبية .

كان العقيد كمال الطاهر قائد لواء المشاة الهاشمي مسؤولا عن الدفـاع عن خط الاخـاديد الذي يبـدأ في عبد العزيز وعن نتوء اللطرون . وبصفته احد الضباط الاردنيين المقربين بصورة خاصة الى الشريف ناصر فقد اخمد الحركات الثورية في الضفة الغربية في وقت انتفاضة السموع بشراسة نمر قاطعا التيار الكهربائي والماء وفارضا منع التجول تحت خطر اطـلاق النار على كل من يشاهد خارج بيته ، وذلك حين ثار سكان الضفة الغربية في شتـاء ١٩٦٦ طالبين السلاح ليقاتلوا اسرائيـل .

في تحليل وضعه قـائد الجبهة الشرقيـة المصـري الفريـق عبد المنعم رياض أثـار قضية اساسية هي كيف استطاع هذا اللواء الذي حشد لقتال الاسرائيليين في قطاع عبد العزيز ان ينسحب بكامله دون أن يمس بمثل تلك السرعة الى أريحا التي تبعد ٤٠ كيلومتـرا ، وقال : « كانت هذه بلا ريب اسرع حركة في التاريخ العسكري » .

في القدس بعد فجر يوم الثلاثاء بقليل ، اتصـل عطا علـي مـن فندق ريتز هاتفيا بالمحافظ واخبره عن خرق الجبهـة في خط المدينـة الشمالي. وكان الاسرائيليون حينئذ في مدرسة شميدت للبنات قبالة باب العمود وتقدموا عبر المنطقة التجارية ليحتلوا المتحف مهددين شارع صلاح الدين ، وهو آخر شارع رئيسي يؤدي الى المدينة القديمة بقي في أيدي الاردنيين . وكان الزعيم على اهبة الانسحاب الى المدينة القديمة قبل ان تقطع عليه الطريق ، فنصح المحافظ بالبقاء في مكانه لانه كان يشك باستطاعته المرور بسلام .

في تلك اللحظة كان العلم الاسرائيلي قد رفع على مبنى مستشفى مار يوحنا في الشيخ جراح والضواحي التي سقطت في أيدي الاسرائيليين . وكان المحافظ مستعدا للبقاء في مكانه لكن الخالدي اقنعه بأنه يستطيع ايصاله الى المدينة القديمة ، فخرجـا مع صديقين آخرين ، وركضوا من باب بيت الى باب بيت آخر نحو الفندق الوطني الذي كان صار محتلا بعد أن مر امامه المظليون في طريقهم الى المتحف قبل ساعـة . وكان الجنود الاسرائيليون يسيرون بخطى حذرة في شارع صلاح الدين ، فأخذ الرجال الاربعة شارعا جانبيا محاذيا قاطعين هيكل فندق سياحي مبني جزئيا الى أن وصلوا الى مدخل مبنى البريد قبالة باب الساهرة .

بين الاسرائيليين الذين كانوا من ناحية قد احتلوا كلية شميدت الواقعة في آخر شارع سليمان الذي يمتد على طول الخط من باب العمود الى ما وراء باب الساهرة الى الشمال الشرقي من زاوية المدينة المسورة وبين اولئك الذين من الناحية الاخرى قد احتلوا المتحف بقيت زاوية غير محتلة لا تزيد عن ٢٥ ياردة بين مكتب البريد والبوابة .

فنادى الخالدي الرجال الذين كانوا يدافعون عن السور وطلب منهم أن يفتحوا البوابة ويطلقوا النار تغطية له ولانور الخطيب حين يقطعان ، واحدا واحدا ، تلك المسافة ، اي الخمس والعشرين ياردة .

كان الخالدي اول من تمكن من الوصول الى البوابة قبل ان يطلق الاسرائيليون النار ، وبعد الخالدي ذهب الاثنان اللذان كانا معهما في فندق ريتز ، ثم جاء دور الخطيب فركض ولكن في موكبية كما هو منتظر من محافظ القدس ان يركض . غير انه نجا على الرغم مما يزيد على مئة رصاصة من البنادق الاوتوماتيكية اطلقت حواليه . ومرت رصاصة على بعد بوصة من رقبة الخطيب فكست بزته السوداء برشاش من البارود . اما الرجل الاخير من الخمسة الذين كانوا معا في مكتب البريد فانه وقع قتيلا على بعد عشر ياردات من البوابة .

وكان الرئيس منصور كريشان قائد الكتيبة الثانية ، وهي من نخبة الكتائب في البوابة ، فأخبر الخطيب والخالدي أنه باستثناء سرية سحبت من وحدته وهي الآن في الخنادق على تلة شعفاط (المعروفة لدى الاسرائيليين باسم « هامفتار ») لم يبق سوى ٦٩ رجلا تحت قيادته . واضاف ان العدو قصف مركز قيادته في جوار الكلية الرشيدية قبالة باب الساهرة بالمدفعية فاضطر الى الانسحاب مع من تبقى من رجال الكتيبة الممتازة الى المدينة المسورة.وكريشان هذا كان رجلا مديد القامة جميل الطلعة في الاربعين تقريبا شجاعا قاتل بشرف الى نهاية الحرب ثم سقط قتيلا على ضفة نهر الاردن في ١٤ شباط ١٩٦٨ حين قصفت المدفعية الاسرائيلية مخيمات اللاجئين والقرى في وادي النهر الغربي .

وكان عطا علي قد أقام رئاسة قيادته في الطابق السفلي من دير الارمن على طريق الالام في جوار جمعية الهلال الاحمر ومأوى البوشرية . لكن المحافظ كان في حالة عصبية شديدة من الغم فرفض الذهاب الى هناك . قال اذا كانت القدس ستسقط فسينتظر في الحرم . وهكذا انتقل الخطيب والخالدي الى الحرم الشريف مع حرس من الشرطة ثم دخلوا مبنى الاوقاف شبه المهجور على بعد بضع مئات من الياردات من منزلي وجعلوه آخر مركز للقيادة المدنية .

خارج اسوار المدينة تابع الاسرائيليون ضغطهم وعملياتهم ضد القناصة المنعزلين الذين استمروا في مضايقتهم طوال النهار . وفي الساعة السابعة غادر الخالدي بناية الاوقاف ليلتحق بعطا علي في

رئاسة قيادة الجيش . وافادت قيادة اللواء في العيزرية ان ليس لديها اي خبر عن طابور النجدة الذي كان يؤمل قدومه مشيا سريعا .

استعرض عطا علي الحالة فتبين له ان كل مواقع مدفعيته قد نسفت بقنابل النابالم المحرقة ، ما عدا اثنين داخل المدينة القديمة لبثا يطلقان النار . وبقي عنده من اللواء ٥٠٠ جندي داخل المدينة المسورة (معظمهم من الاحتياطيين تحت التدريب) ووفرة من الذخيرة . وخارج الاسوار لم يبق في أيدي الاردنيين سوى مركز تلة شعفاط التي عزلها المظليون الاسرائيليون عن القدس شمالي السور ومركزي الشيخ جراح وتلة الذخيرة ومركز اوغستا فكتوريا بين جبل الزيتون وجبل سكوبوس والخط الجنوبي الاعلى — ابو طور والطور وراس العمود (نقطة شرطة مسلحة في اقصى المنحدر الجنوبي من جبل الزيتون) .

اعتقد الزعيم ان المدينة القديمة قادرة على الصمود ، فوافقه الخالدي . وعاد هذا الاخير الى مركز القيادة في بناية الاوقاف ليشرح الموقف للمحافظ .

في هذا اليوم الثاني من الحرب تحرك اللواء الاسرائيلي المدرع الذي كان في بيت حنينا مسيطرا على مدخل المدينة ، ضد بقايا الجيش الاردني المفصول بين القدس ورام الله .

وكان بلوك من الدبابات الاردنية وهو البقية من طابور النجدة الذي قدم ليلة الاثنين وشتته السلاح الجوي الاسرائيلي وهو آت الى القدس ، اتخذ مركزا له في شعفاط . غير ان السلاح الجوي واللواء المدرع الاسرائيليين حطما وشتتا اكثر هذه الدبابات في الشرق . لكن ثلاثة من قواد الدبابات الاردنية شقوا دربهم الى الجنوب في محاولة يائسة يقاتلون ليصلوا الى القدس . وكانوا يشاهدون في الساعة العاشرة من مستشفى القديس يوسف فوق الشيخ جراح سائرين على طريق رام الله نحو المدينة .

قامت الدبابات الاسرائيلية التي كانت في نقطة مجاورة بمناورة من مراكزها المكشوفة وراء المستشفى وجاءت الى الشارع الضيق بين مستشفى القديس يوسف ومستشفى مار يوحنا للعيون وقصدها ان تنطلق من طرفي هذا الشارع الى مركز غير مكشوف لتقصف الدبابات الاردنية الآتية ثم تعود سريعا الى الطريق تجنبا لنيران العرب .

ومن سطح المستشفى ونوافذه صوب المظليون الاسرائيليون النار من الاسلحة الاوتوماتيكية مصحوبة بالصواريخ المضادة للدبابات على الاردنيين فاضطرت هذه الى اطلاق النار على المستشفيين . وانتهت المعركة في دقائق واشتعلت النار في الدبابة الاردنية التي كانت في الطليعة فسدت الطريق ثم دمرت . وانسحبت الاخريان تحت قصف شديد واغلب الظن ان الطائرات الاسرائيلية دمرتهما في وقت قصير .

ولما وصل المحافظ والخالدي الى مركز قيادة عطا علي في ساعة متقدمة من الصباح كان ضباط اللواء في العيزرية قد عرفوا مدى الهزيمة والتقهقر ونقلوا ذعرهم للزعيم بالراديو . ولواء حطين في الخليل ـ الذي لم يشترك في القتال قط ـ انسحب كما فعل لواء رام الله ايضا . وكان طابور اسرائيلي مدرع يتقدم نحو دير مار الياس الى الغرب من خط القدس الجنوبي ومدخل بيت لحم ، كما أن وحدات من اللواء الاسرائيلي المدرع كانت تتحرك من الشمال نحو تل الفول وتوشك ان تصبح في حالة تمكنها من قطع طريق القدس ـ اريحا فتطوق رئاسة قيادة اللواء .

طلب عطا علي من العيزرية ان تتصل ببقايا الكتيبة التي كانت تقاتل في قطاع دار الحكومة ـ سور باهر الجنوبي وانسحبت الى الشرق من القرية التي هوجمت وسقطت يوم الاثنين مساء الى مركز مجاور ، ان تأمرها ان تلتحق بالسرية التي تدافع عن ابو طور الواقع جنوبي المدينة المسورة وقريبا منها .

كانت الخطة التي وضعها عطا علي والخالدي ترمي الى ابقاء مواقع قوية في ابو طور ورأس العمود واوغستا فكتوريا وشعفاط لتفرق القوات الاسرائيلية وتشغلها طوال يوم الثلثاء ، وهكذا تحول دون تجمعها ضد المدينة القديمة التي صارت مواقع الدفاع فيها متزعزعة . ونجحت الخطة .

في الساعة الثانية عشرة أثر هجمات جوية دون معارضة على المركز المكشوف ، تحركت وحدات من الطابور الاسرائيلي المدرع ضد القوة الاردنية على تلة شعفاط (وكانت قد تعززت بالجنود الذين نجوا من معارك وادي الجوز ووكالة غوث اللاجئين وتل الذخيرة في الليلة السابقة) . اول موجة من المهاجمين الاسرائيليين تدفقت، الى الخنادق السفلى فرمى بها الى الوراء الاردنيون الذين ثبتوا في مراكزهم على الرغم من القصف الذي هيأ للهجوم ثم انقضوا على المشاة الاسرائيليين الذين دخلوا الخنادق . أمام تلك المقاومة القوية انسحب الاسرائيليون فقط ليعيدوا الكرة في هجوم ثان بعد الظهر قليلا واحتلوا التلة وسقط الموقع .

كان ابو طور الذي كانت تدافع عنه وحدات يقل عدد جنودها عن كتيبة قد سقط في أيدي لواء المشاة الاسرائيلي المحلي بعد ان صدت هجوم الاسرائيليين ثلاث وحدات اردنية قوية في هذه الضاحية الجنوبية واوقفت تقدمهم ساعات عدة .

طوال النهار استمر الاردنيون على السور يطلقون نارا حامية من اسلحتهم الخفيفة على المتحف (الذي حوله المظليون الى مركز محصن وجعلوه مركزا لرئاسة القيادة) وعلى أية تجمعات اسرائيلية

تظهر .

وخلال تناول طعام الغداء في مركز قيادة الزعيم طلب هذا من الخالدي ان يتلو عليه ما يقوله الكتاب عن الاستسلام . ارتعب حازم من السؤال لكنه استعرض لعطا علي جميع الحوادث والطوارىء. اضطرب المحافظ ايضا اضطرابا شديدا من موقف الزعيم انما لم يقل شيئا ريثما ينتهون من الطعام فيتاح له ان يجتمع الى الخالدي وحده.

لم يبق سوى ٢٣ ضابطا في الجيش داخل المدينة المسورة وكان الزعيم قد دعاهم جميعا من مراكزهم للتشاور في اثناء الغداء . كانوا منفعلين ومتوتري الاعصاب حول المائدة .

بقيت كمية وافرة من الذخيرة لكن المواد الطبية استهلكت كلها . وفي مستشفى القديس يوسف واوغستا فكتوريا ومستشفى الحكومة الموجود في المضيفة النمساوية القديمة كانت الحالة يائسة ولم يبق دم . طلبوا الدم من بنك الدم فقيل لهم لا توجد عندهم قطرة منه . وكانت وزارة الصحة في اليوم ذاته ترد بالوعود على طلبات الضمادات والادوية الواقية من الجراثيم ، لكنها لم ترسل شيئا .

في جميع المستشفيات كان الموظفون يجودون بدمهم ، وعلى الرغم من ذلك توفي في مستشفى القديس يوسف ثلاثة رجال من النزف . وكان هذا المستشفى يستقبل عددا كبيرا من المصابين في معارك طريق نابلس ومؤسسة اسعاف اللاجئين . وافاد مستشفى القديس يوسف ان ليس بين جرحى الجيش اي ضابط .

في طريق الالام كانت وحدة الدكتور بيطار من الدفاع المدني وراهبات « أخوات صهيون » واليسوعيين (رفاق يسوع) يعتنون بالجرحى . هنا ايضا عدم وجود اللوازم الطبية والادوية جعل الحالة لا تطاق . وفي مستشفى الحكومة كان من المستحيل حتى تقدير عدد الجنود والمدنيين الذين ماتوا لعدم وجود الدم وغيره من العلاجات. لم يكن سوى مدفن عظام ـ لا ضمادات لا ادوية لا طعام حتى لا خبز ـ وموظفين في حالة محزنة من الاضطراب واليأس وغرف ملأى بالجرحى ورجال يموتون وهم في النزع الاخير يلعنون المسؤولين لانهم تخلوا عنهم وقطعوا الجرايات والذخيرة والامدادات العسكرية .

ولما زار الخطيب والخالدي المستشفى في ساعة متأخرة من النهار خلال دورة قاما بها في المدينة هرولا هاربين ، لا من هول منظر الاموات والجرحى المطروحين بعضهم فوق البعض في ارض غرف المضيفة ومماشيها الزلقة ، ولكن من الكلام السياسي المحزن الاليم .

بعد الظهر قدم الى مبنى الاوقاف مساعد البطريرك اللاتيني واقترح بطريقة ديبلوماسية لطيفة على المحافظ تسليم المدينة القديمة لان ذلك افضل من مشاهدتها تدمر . وكان قداسة البابا في صباح اليوم

السابق عندما نشبت الحرب قد رجا في تصريح رسمي له المتحاربين ان يعتبروا القدس مدينة مفتوحة. ولا أعلم هل أحد من مطارنة او اساقفة الكاثوليك الرومان اتصل بالاسرائيليين وطلب منهم الا يجتاحوا المدينة القديمة . ورافق الخطيب والخالدي مساعد البطريرك الى الباب بكل أدب ولياقة .

في مركز القيادة تسلم علي عطا رسالة لاسلكية من الملك حسين وصلت عن طريق مركز برقي اتصالي تقول أن في الامكان القيام بهجوم معاكس لانقاذ القدس تلك الليلة . فقرر المحافظ ان يدعو اعضاء المجلس البلدي وكبار ضباط الجيش وموظفي الشرطة داخل الاسوار الى اجتماع لبحث الموقف . ولكن عند الساعة الرابعة بعد الظهر فقط عثر على رئيس البلدية روحي الخطيب وموسى البيطار وابو علي النتشه (مستشار مشهور في المدينة وتاجر زجاج اصله من الخليل) وجيء بهم الى مبنى الاوقاف . ونظرا الى فقدان النصاب تقرر تأجيل الاجتماع الى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي . دعا المحافظ رئيس البلدية الى البقاء تلك الليلة في مبنى الاوقاف ولكن هذا قرر العودة الى البلدية حيث كان عدد من موظفيه .

وبعيدا الى الشمال في ذلك اليوم كانت قد بدأت المعارك الحربية الاخيرة ، ذلك ان ثلاثة ألوية اسرائيلية من فرقة القيادة الشمالية (اثنتين مدرعتين وواحدة من المشاة) وصلت الى جنين عقب خدعة تحويلية قامت بها من بيت شعان وحدات صغيرة في اليوم الاسبق لتجعل المصفحات الاردنية ترتد الى الوراء في اتجاه النهر . وفي الوقت ذاته تقدمت وحدات من المشاة سحبت من القيادة الاسرائيلية الوسطى عبر الحدود الشمالية في قطاع قلقيليه ــ طولكرم .

كان لواء المشاة « عاليه » المدافع عن هذا القطاع قد تراجع الى نابلس ثم أمر صباح الثلثاء بالانسحاب الى الضفة الشرقية . وفي منتصف الطريق بين نابلس ونهر الاردن تلقى اللواء امرا بالعودة الى نابلس . وأفادت عمان القائد ان وقف اطلاق النار يوشك ان يتم ، لذلك يتوجب عليهم ان يعودوا الى قواعدهم . انما عند وصولهم الى نابلس بعد الظهر امروا ثانية بالتراجع الى الضفة الشرقية .

في هذا الوقت بدأ الاسرائيليون ، مستعينين بالسلاح الجوي ، تحطيم المصفحات الاردنية المدافعة عن المدن الشمالية الخالية من مساندة المشاة واطبقوا على جنين وطوباس ونابلس .

عند غروب الشمس يوم الثلثاء (٦ حزيران) ، تحرك المظليون الاسرائيليون من نقطة تجمعهم قرب المتحف في هجوم على موقع

اوغستا فكتوريا . وبينما الدبابات الاسرائيلية المتمركزة قرب المتحف تقصف بقنابلها جوانب التلة كانت دبابات أخرى (عدد مخفض) تشق الطريق للمظليين ووحدة من الكشافة نحو المواقع الاردنية المقواة بالاحتياطيين تحت التدريب المدافعين عن المرتفعات .

ان طريق وادي الجوز وراء المتحف ينحدر انحدارا حادا الى وادي سلوان الشرقي الذي يفصل المدينة القديمة عن جبل سكوبوس وجبل الزيتون . وهنا يتقاطع شارع سليمان الذي يمتد نزولا من المدينة ليتفتح على عدد من الطرق بما فيها طريق أريحا وهي طريق عام يمر أبعد من الامتداد الشرقي لسور المدينة ويقترب من الطريق الصاعد الى باب الاسباط مقابل اخدود اوغستا فكتوريا في الجانب الآخر من الوادي . وهناك طريق يمتد من المدينة صعدا الى اوغستا فكتوريا الى جانب المنحدر الشرقي. وسارت القوة الاسرائيلية الرئيسة في هذا الطريق الاخير . وحدة استكشافية امامية لفتت لفتة خاطئة ووقعت تحت نار حامية من الاردنيين المتمركزين على اسوار المدينة الشرقية والشمالية الشرقية . وفي هذا الوقت فتح الرجال المتفرقون بعضهم عن بعض في محلة اوغستا فكتوريا النار على الطابور الاسرائيلي والوحدة الاستكشافية فوقع الاثنان بين نارين من الاردنيين وتحطمت دبابتان وعدد من سيارات الجيب الاستكشافية . وبعد ساعتين من القتال وتزايد الاصابات انسحب الاسرائيليون .

وفي الساعة ٢٢ بدأ هجوم الاردنيين المعاكس من الشرق فكان محاولة يائسة محكوما عليها بالفشل جاءت متأخرة لانقاذ القدس . في هذه المرة لما فتح الاسرائيليون نيران مدافعهم على طابور الانقاذ الآتي من اريحا كان في الامكان ليس فقط رؤية لمعان النار كما في الليلة الماضية بل ايضا سماع اصوات المعركة لان الاسرائيليين كانوا في منطقة بيت حنينا وقادرين على تصويب نار مدفعيتهم الى الطابور من الشمال وعلى ضربه من الجو .

ولما اقتربت اصوات المعركة من المدينة القديمة استولت حماسة دينية على الرجال المجندين والمدنيين المدافعين عن السور فارتفعت الصيحات « الله اكبر الله اكبر » مدة ساعتين حتى توقف اطلاق النار بعد منتصف الليل وفهمت المدينة ان الهجوم المعاكس فشل .

كان الجزء الامامي من طابور الانقاذ قد تحطم وتضعضع بالقصف من الجو ومن المدفعية . وكان الاردنيون لم يكترثوا للاقتراح الاساسي لسير ليلي سريع مع اتخاذ الاحتياطات في محاولات للخفية بل سار الطابور رأسا على الطريق مع الدبابات وسيارات الشحن . وكان حطام مصفحاته المسودة من قنابل النابالم يسد الطريق ويحول دون التقدم .

في الساعة الثالثة من صباح الاربعاء وبعد قليل من انقطاع صوت

المعركة من الشرق ، انصبت نيران الرشاشات ومدافع الهاون الحامية على الاسوار وفوقها . فذهب عطا علي الى مبنى الاوقاف واخبر الخطيب ان ضباطه ما عدا اثنين منهم فروا في وقت مبكر من الليل . وبقي مع الجنود الرئيس كريشان والملازم مجالي ابن رئيس بلدية الكرك . وأضاف الزعيم انه تحت مثل هذه الظروف ، انخفضت معنويات الجنود جدا لفرار الكثيرين ومن التعب والجوع ، ولم يعد في استطاعته مواصلة القتال . وبما ان بقية الجيش في معظم مناطق الضفة الغربية انسحبت كما يظهر فهو يشعر بأن عليه أن ينسحب هو ايضا . فطلب الخطيب من الزعيم ان يحاول الثبات لكن عطا علي أظهر له ما كانت تنطوي عليه المحاولة من الصعوبات في ضبط جنود دون ضباط . واقترح المحافظ مقاومة شعبية عامة وتعيين ضباط من اعيان المدينة فقال له الزعيم « كل ما ستفعلونه عندئذ هو تدمير القدس . فالمدينة ستهاجم حتما عند الفجر وجنودي ليسوا في حالة تمكنهم من المقاومة » .

ودعا عطا علي الخطيب الى الانسحاب معه لكن المحافظ رفض وقال له : « انت القائد العسكري وتقرر التصرفات العسكرية . اما القدس فهي المدينة التي تبنيتها ولست مستعدا ان اغادرها بهذه الطريقة . اذا كانت ارادة الله ان اموت فلا اريد ان اموت في مكان آخر » .

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل جاء فريق من صف الضباط الى مبنى الاوقاف واخبروا عطا علي ان بعض الجنود بدأوا يتخلون عن مراكزهم . وكان في مبنى الاوقاف نحو ٣٠ رجلا من المدنيين فلم يشأ عطا علي ان يزعجهم وقال لفريق صف الضباط اتبعوني وعودوا الى مراكزكم . لكنه لم يرافقهم بل ذهب الى الاسوار وارسل يقول للجنود غادروا مراكزكم في هدوء في بوابة ذبح ، فذهبوا ومن هناك تسللوا كل على حدة .

بعد توقف اطلاق النار بقليل وجه الاسرائيليون بواسطة مكبرات الصوت نداء باللغة العربية الى الجند ان يطرحوا اسلحتهم جانبا والى المدنيين ان يضعوا على ابوابهم قطعا من قماش ابيض .

تأثر المحافظ جدا من ذهاب عطا علي وجلس لا ينطق وخاف الخالدي ان تصيبه نوبة قلبية فأعطاه بعض المسكنات . وطلب من الخالدي ان يتركه وحده خمس عشرة دقيقة وان يتولى عنه شؤون الديوان في هذه الفترة .

حدث هياج هائل على باب مبنى الاوقاف عندما اندفع جمع من المتطوعين الى الداخل ليعلنوا ان الجنود يتخلون عن مراكزهم . كان عددهم نحو المئة لكنهم لم يكونوا كلهم مسلحين . فاعاد الخالدي الهدوء وقال للمتطوعين انه ليس في مقدوره ان يفعل شيئا في غياب المحافظ

وليس في الامكان ارغام الناس على القتال . ودعاهم بدل الصياح ان يذهبوا ويدافعوا عن الاسوار .

هدأ المتطوعون وذهبوا الى المراكز المهجورة . ولما رجع المحافظ طلب من حازم بك ان يتولى الشؤون العسكرية وان ينظر في امكانات الدفاع الباقية . فكتب الخطيب أسماء أعضاء البلدية على ورقة وطلب من شرطي ان يأتي بهم الى مبنى الاوقاف لاجتماع طارىء .

وفي بضع دقائق جاء الى مبنى الاوقاف عشرون شرطيا ليطرحوا سلاحهم . وفي الساعة الثانية والنصف صباحا كان المزيد من رجال الشرطة والمتطوعين وافراد من الجند — الذين أما تركوا وحدهم اثر ذهاب الاخرين وأما قرروا الفرار من الخدمة — شرعوا يسلمون اسلحتهم . وعدد ضئيل من الجنود كانوا قرروا البقاء ليقاتلوا .

كان المحافظ يأمل ان تنعقد الجلسة في الساعة الثانية ، لكن اربعة رجال فقط حضروا — القاضي ، والشيخ سعيد صبري ، وموسى البيطار وابو علي النتشه بالاضافة الى مدير المعارف ورئيس الشرطة ، فتم الاتفاق على ان تؤجل الجلسة الى الساعة الثامنة صباحا .

على مسافة ثلاثين ميلا الى الشرق وبعيدا تحت سلسلة جبال اليهودية انتشر الذعر بين اللاجئين في مخيمات عقبة جبر وغيرها من المخيمات في قطاع اريحا حين عرفوا ان الجيش انسحب الى الضفة الشرقية. وكان اللاجئون قد طلبوا خلال يومين من مركز الشرطة المحلية ان يعطيهم سلاحا فقيل لهم اتكلوا على الجيش . وفي الساعة الثالثة صباحا كان الوف اللاجئين قد هجروا المخيمات وهرولوا على الاقدام وبالسيارات نحو النهر . وظهرت عند طلوع الشمس طيارات اسرائيلية فوق الوادي لتلقي قنابلها حول اريحا وبذلك تعجل خروج اللاجئين .

وفيما تبقى من الوقت يوم الاربعاء عمدت قوى الجيش والمدفعية والفرق المصفحة الاسرائيلية الى سحق او اخراج ما ظل من القوات الاردنية في الضفة الغربية والتي كانت متجمعة الى الغرب من نابلس وفي قباطيه عند ملتقى الخطوط الحديدية . وفي الساعة العاشرة صباحا عندما اتحدت الوحدات المصفحة الشمالية والوسطى على جسر داميه كانت الضفة الغربية بكاملها قد سقطت في أيدي الاسرائيليين .

في القدس ، عند الساعة الثامنة صباحا ، كان باقيا مئة رجل مسلح من المدنيين وبعض الجنود يحمون الاسوار ومعظمهم متجمعون في باب العمود وباب الساهرة . وفي المدينة كان كل شيء قد انتهى وألقى

بعض الفتيان بأسلحتهم التي حصلوا عليها في ابواب مراكز الدفاع المدني ، وكان الاكثر فطنة من الرجال ينبشون الارض ويطمرون اسلحتهم .

عاد المحافظ وبعض المستشارين القلائل الى مبنى الاوقاف ليحضروا الاجتماع في مكتب القاضي ، وكان اكثر من مئة مدني يتجولون في انحاء البناية وفي خارجها .

حلل الخالدي الحالة قائلا ان كمية وافرة من الاسلحة والذخيرة لا تزال باقية وان الجيش انسحب . وعلى الرغم من فقدان النظام والتدريب ومن الظروف القاسية المعاكسة ففي استطاعة المدينة ان تواصل القتال ولكن ليس الى امد طويل . وقال الخالدي انه قد يكون في الامكان المحافظة على الاسوار حتى المساء ولكن عندئذ يصبح من الضروري التراجع والقتال في الشوارع ومن بيت الى بيت .

واضاف : « عليكم ان تدركوا اننا اذا قاتلنا فالمدينة ستدمر لان العدو سيضربنا بالقنابل والمدفعية ليحمي جنوده » .

وما كاد الخالدي ينهي كلامه حتى مرت فوق الحرم على علو منخفض فصيلة من الطائرات الاسرائيلية المقاتلة في طريقها لتلقي قنابل شديدة الانفجار وقنابل نابالم المحرقة على مواقع اوغوستا فكتوريا . وكانت الرياح تهب في اتجاه الشرق والغبار الذي اثارته المتفجرات ظهر كأنه يعلو فوق المسالك الاسرائيلية على جبل سكوبوس . وامتلأ مبنى الاوقاف بأصوات التهليل والهتافات الصاخبة لان الناس اعتقدوا أن الطائرات العراقية هي التي ضربت الاسرائيليين هناك . واخذ المتطوعون المسلحون في الزقاق في خارج مبنى الاوقاف يطلقون نار بنادقهم في الهواء ابتهاجاً بالحادث الفجائي الدال على الخلاص . وحاول الخالدي ان يفهم الجمهور ان الطائرات اسرائيلية لكن الجمهور المتحمس لم يعبأ بذلك بل ان واحدا اتهمه بأنه عميل بريطاني. وانفرط عقد الاجتماع من جراء الغوغائية التي سادت المبنى ولفقدان النصاب ثانية وبدأ المحافظ يخاف على سلامة الخالدي ، فأجل الاجتماع الى الظهر ، وجلس الخالدي يفكر في وضع خطة للمقاومة بين بيت وبيت .

كان مشهد اوغستا فكتوريا والنيران من قنابل النابالم على منحدرات التلة ظاهرا في وضوح من حديقتي . ومن تبقى من فصيلة الاحتياطيين الاردنيين ، في قيادة جاويش ، التي صدت في اليوم السابق لواء من المظليين الاسرائيليين محق الآن من الجو . فعندما انتهى القصف من الطائرات المغيرة تقدم المظليون تحميهم نيران المدفعية الثقيلة من جبل سكوبوس ضد المركز المهجور صعودا على طريق جبل الزيتون من وادي الجوز . والدبابات وسيارات الجيب المجهزة بالبنادق التي لا ترتد الى الوراء اكتسحت الاخاديد دون ان تلقى مقاومة بينما نزلت فصيلة

اضافية مدرعة من ناحية المتحف رأسا الى طريق اريحا لتتخذ لنفسها موقعا للهجوم في الوادي تحت باب الاسباط .

وقبل الهجوم ببضع ساعات جاء جاويش اردني مع جنديين كانوا غادروا المدينة في الصباح الى مبنى الاوقاف . وصلوا الى جبل الزيتون عند شروق الشمس فشاهدوا اشعتها تغمر قبة الصخرة وضياءها ينير معالم الحرم الشريف ، فلم يقدروا ان يخطوا خطوة الى الامام بل رجعوا « طالبين الاستشهاد » . كان الجاويش من منطقة نابلس والجنديان من اهالي فلسطين ايضا . سحبوا بندقية بازوكا وثمانية صواريخ من مستودع الاسلحة وذهبوا فوق السور الشرقي الى مدفن المسلمين الذي يشرف على القدس من وادي سلوان . وعلى اقل من مئة ياردة تحت البوابة الذهبية المسدودة — باب الرحمة — نبشوا خندقا وانتظروا الهجوم ليحطموا دبابتين من دبابات المظليين قبل أن يضرب الاسرائيليون موقعهم بقنابل النابالم .

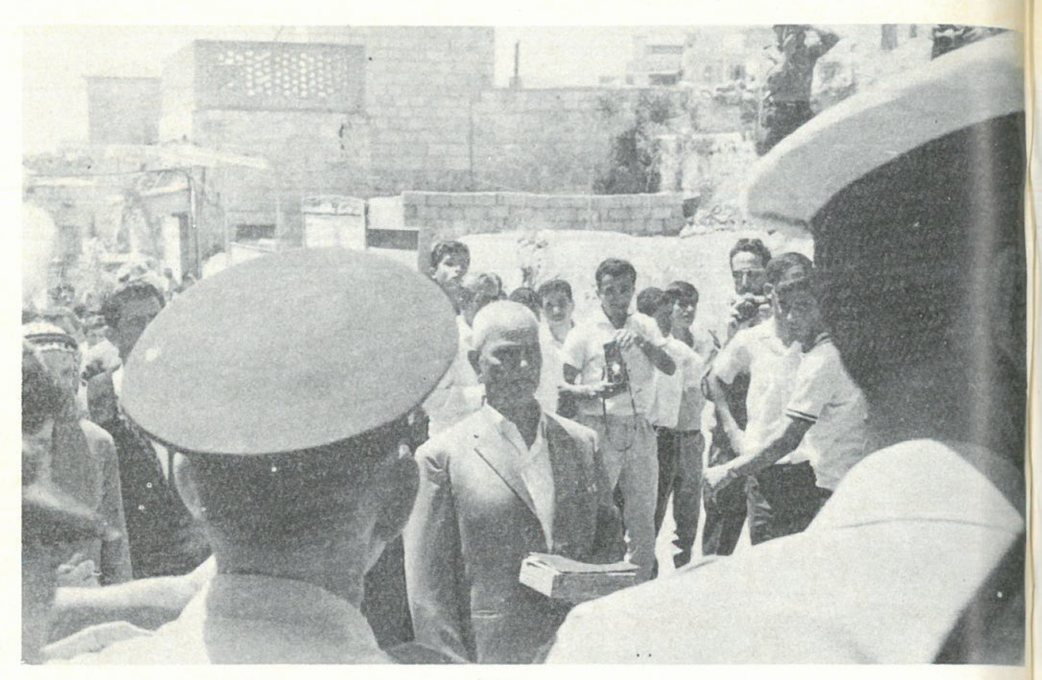
في الساعة التاسعة والنصف صباحا كانت الكتيبتان الاسرائيليتان قد تمركزتا في اوغستا فكتوريا ومن هناك دارتا في خفة نحو المدينة. وفتحت الدبابات ومدفعية لواء بكامله نيرانها على الحي الاسلامي الشمالي الشرقي من المدينة القديمة فتصاعدت اعمدة الدخان والغبار فوق الاسوار وظننت المدينة تحترق . دام القصف عشر دقائق فسقط على الاقل مئة قتيل من المدنيين وأصيب مئات عدة غيرهم بجراح(١) .

لم أتمكن من رؤية الطائرة الوحيدة التي انقضت وضربت الزاوية الهندية داخل باب الساهرة . والى ساعة متأخرة من ليلة الثلثاء كان مدفع هاون اردني ثقيل يضرب من موقع قريب من هناك . وسكت المدفع . كانت المواقع قد أخليت قبل تسع ساعات . ومن باب الاحتياط على ما يظهر وجد الاسرائيليون أن من الضروري قصف الزاوية ذاتها بالنابالم ففعلوا وقتلوا ثلاثة مدنيين واصابوا اثني عشر غيرهم بحروق بليغة .

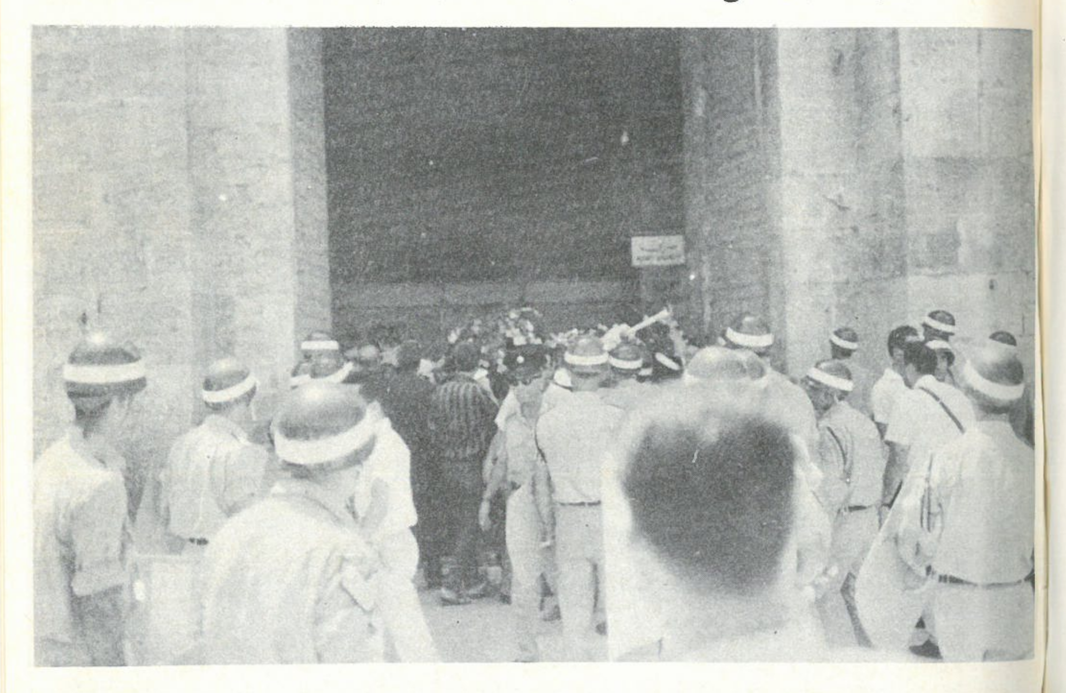
بما ان الاسرائيليين أقروا بأن مدفعيتهم وحدها ضربت المدينة القديمة فقط وأنكر دايان اي هجوم جوي وقع عليها ، فان التقارير «الرسمية» التي وضعت أثر الحرب لم تذكر شيئا عن هذه الغارة . واجتمعت بعد ذلك بكثيرين من الاسرائيليين (والاميركيين القاطنين في

---

(١) كانت في القدس الاسرائيلية ملاجىء وخنادق وحفر ، وكانت الاصابات بين المدنيين اقل منها في المدينة العربية على الرغم من الضرب الذي قامت به المدفعية الاردنية طوال يوم الاثنين . استعمل الاردنيون على ما يظهر قنابل تحول دون توزيع الجنود اعتقادا منهم ان تجمعات من الجنود كانت تتحرك في شوارع المدينة الجديدة . والاضرار التي تنجم عن التصادم لا يعتد بها .



الشرطة الاسرائيلية تقمع تظاهرة عربية امام بوابة دمشق يوم ٥ حزيران ١٩٦٨ لمناسبة ذكرى ٥ حزيران ١٩٦٧



اسرائيل) فكانت تصفر وجوههم عند ذكرى هذا الامر . لكن سلمون ستاكل ، عالم الاثار والمراسل الصحافي الذي وافى صحيفة كندية بوقائع الحرب ، من بين الاسرائيليين الذين اعرفهم أيد خبر شاهد العيان العربي . وقال انه شاهد الغارة الجوية(١) .

اخليت الاسوار الان الا من جندي اردني منفرد بقي ليتسلق مئذنة باب الاسباط مسلحا برشاش برن ويطلق النار على لواء المظليين الزاحف على المدينة ، ورشاشات دباباته ومصفحاته تطلق بصورة جنونية .

وكأنه كغودفري دو بويون يقفز سباقا الى السور قفز القائد الاسرائيلي الى سيارته المجنزرة وقاد مقدمة المصفحات عبر البوابة الى المدينة في ذلك السباق الجنوني الطائش .

اطلق عشرة الى عشرين مدنيا مسلحا وجنديا عربيا موزعين في المدينة الرصاص على المظليين المتدفقين الى القدس . وقاتل بعضهم وقتل حول طريق الالام . وغيرهم وقفوا وقفتهم الاخيرة قرب باب العمود او لقوا حتفهم على سطوح المنازل او في أزقة مظلمة في قلب المدينة . وخارج المدينة قصف الاسرائيليون بمدافعهم البقية القليلة من المدنيين المسلحين الذين كانوا احتلوا المواقع المهجورة في الطور — رأس العمود واجتاحتهم فصيلة من المظليين كانت قد واصلت زحفها على طول أخدود جبل الزيتون .

وعلى طول سور المدينة الجنوبي الغربي اطلق بعض القناصة النار من اسلحتهم الخفيفة على لواء المشاة الاسرائيلي الذي كان مندفعا من جبل صهيون نحو المدينة القديمة عبر باب المغاربة المؤدي الى سلوان . واثر انتهاء ستار المدفعية من عمله بعد خمس واربعين دقيقة اصبحت المدينة بكاملها ساكتة في أيدي الاسرائيليين .

من الصعب تقدير عدد الجنود الاردنيين الذين قتلوا في معركة القدس او في الضفة الغربية . اني اقدر على اساس سجلات قيد الاوقاف للمدفونين والتقارير التي وضعها مشاهدو عيان ان ما يزيد قليلا على ٢٠٠ جندي اردني قتلوا في منطقة القدس ومعظمهم من الاحتياطيين تحت التدريب .

لما تم وقف اطلاق النار نقلت الانباء عن مصادر في عمان أن

---

(١) صرح قائد المظليين الاسرائيليين ايضا في القدس بعد الضرب « لم يصب مكان واحد من الاماكن المقدسة » . وفي اشهر بعد الحرب عندما لفت نظر مرشد اسرائيلي من زعماء مرشدي السياح الى الفوهة المفتوحة في جدار كنيسة القديسة آن القريبة من باب الاسباط (بوابة مار أسطفان) قال ان ذلك يبرهن عن المدى البعيد الذي تتوصل اليه رغبة رجال المدفعية الاردنية في تعييب اسرائيل والنيل منها » .



فتيان عرب يحملون الاكاليل الى مقابر الشهداء

ربيع ١٩٦٨ : اول تظاهرة عربية في القدس ضد الاحتلال الاسرائيلي



الجيش قد « أبيد » على الضفة الغربية . وفي ايام قليلة انخفض العدد الى ٧٠٠٠ رجل بين قتيل ومفقود .

والرقم غير الرسمي الذي امكن الحصول عليه الان من دوائر سياسية وعسكرية محترمة هو ١٩٣ قتيلا انما هذا لا يضم الاحتياطيين تحت التدريب.ولكون معركة المشاة الوحيدة بين الاردنيين والاسرائيليين وقعت في القدس اقدر ان الحقيقة لا تبعد عن الرقم الاخير .

ان الاسرائيليين اذكياء حاذقون لكنها حكمة مدرسة الحقوق في جامعة هارفرد لا حكمة سليمان . وعلى الرغم من الهالة « التوراتية » حاربوا هنا في القدس كما في كل مكان اخر بكل الحذر والتخطيط الواسع النطاق الطويل الاجل وبالاعتماد على تكنولوجية الدولة الحديثة ، فكان نمط قتالهم وأسلوب حركتهم ، يذكراننا بالجيش الاميركي .

عندما سار المظليون الى المدينة أنحرفت وحداتهم الامامية انحرافا حادا الى الشمال واندفعت نحو الحرم الشريف فلم تستطع مدرعاتهم الثقيلة ان تعبر البوابة الموجودة في اقصى الشمال والسهلة الدخول فاقتحم المظليون الحرم المقدس مشيا وفي سيارات الجيب وهم في عجيج هائل ، فهمنا منه في الطرف الاخر من الحرم ان المدينة قد سقطت . وفي دقائق دخلوا مبنى الاوقاف ليأخذوا المحافظ والقاضي والخالدي اسرى . ومن بوابة مبنى الاوقاف عبر الزقاق الموصل رأسا الى الحرم توجد المضيفة الافريقية حيث يسكن منذ اجيال الحجاج القادمون من السودان والتشاد الى القدس . وكان الاسرائيليون يقبضون على كل من وجدوه من الرجال . في تلك المضيفة كان مساعد المحافظ ورئيس الشرطة ومساعده الذين كانوا قد تخلوا عن الخطيب في محاولة اخيرة ليتجنبوا الوقوع في الاسر. وكان رئيس الشرطة ومساعده قد خلعا البدلة العسكرية واخذ الخوف والارتباك منهما كل مأخذ حين قادوهما خارج المضيفة مرتديين في شكل يثير السخط ثيابا مدنية غير موائمة عثرا عليها هناك .

جرى اولا تفتيش الرجال ثم اقتادوهم وايديهم مرفوعة فوق رؤوسهم مسافة مئة ياردة الى المنصة السفلى من الحرم الواقعة مباشرة تحت نوافذ شقتي وأمروهم بان يديروا وجوههم الى الحائط .

كان القاضي يرتدي جبة ثقيلة مثل الجبات المحببة لدى مشايخ الازهر . وكلما بدأت ذراعاه تهبطان كان الحراس الاسرائيليون يلكزونه برقة بحراب بنادقهم . لكن القاضي بقي محافظا على رباطة جأشه . وفي دقائق اخذوهم الى قائد المظليين الكولونيل مردخاي « موتا غور » الذي أقام مركز قيادته في جوار قبة الصخرة . وجاء حشد من المصورين

واخذوا مكان الحرس .

اخبر الخطيب الكولونيل ان اجتماعا كان قد تعين انعقاده في الساعة الثانية عشرة ظهرا وكان الغرض منه اتخاذ قرار بتسليم المدينة رسميا فاجابه غور أنه اذ يرحب بكل اجراء من شأنه ان يوفر عليه الانزعاج في قمع المقاومة فعلى كل واحد ان يدرك ان واجبه الاولي هو تجاه جنوده . واذا جاءت المقاومة من اي بيت فان البيت سيهدم . لكنه في الوقت نفسه اكد ان اوامر صارمة اعطيت لجنوده بان لا يضايقوا احدا او ان يقتلوا احدا او ان يتلفوا شيئا الا في حالة الدفاع .

كان المكان الذي وقف فيه غور يتكلم مع المحافظ ومرافقيه يسمح بمشاهدة اروع مناظر الحرم . الى الجنوب قليلا تنحدر من المنصة العالية التي كانوا عليها الادراج الواسعة ، الموازين ، محاطة بالاروقة المقنطرة المرتبط بعضها ببعض ومنحدرة الى البركة وباحة المسجد الاقصى المحرجة بشجر السرو . وكان باب الاقصى قد نسف بقنبلة بازوكا عطلت ايضا الواجهة العليا . ولم يكن اي قناصة في المسجد .

تحت المنصة كان مئات من العرب يقادون الى الاسر والاستنطاق وأحيانا الى الضرب اذ أن الاسرائيليين استمروا في القبض على الرجال جزافا في انحاء المدينة . مئات من هؤلاء الرجال وبينهم كثيرون من جيراني كانوا يعرضون على مراسلي الصحف الاجنبية كجنود مأسورين خلعوا بدلاتهم العسكرية .

جيء بعربي مرتديا بدلة كاكية ، يعرج برجل مشوهة ، قميصه ملطخ بالدماء ، وسرواله الكاكي من فضلات الحرب ومن لباس الفقراء . ظن المظليون ان الدم هو لاسرائيلي فشرعوا يرفسونه ويضربونه باعقاب بنادقهم حتى اشرف على الموت . اما الدم على ثيابه فكان من ولديه اللذين انتشلهما قبل القبض عليه بثوان من بين انقاض بيته الذي هدمته القنابل .

واذا رؤي رجل يمشي بلا لباقة او ظهرت منه أدنى حركة يستدل منها على التحدي يهان ويضرب .

وجرت مثل هذه العمليات من القبض على الرجال وأسرهم خارج المدينة ايضا وقرب فندق امباسادور في الشيخ جراح . ولاحظ تري سميث مراسل « النيويورك تايمز » مئات المدنيين العرب جالسين القرفصاء وايديهم مرفوعة فوق رؤوسهم ووجوههم صوب الحائط . الا ان ثلاثة من العرب قيل لسميث انهم جنود اردنيون كانوا مفصولين عن بقية الاسرى ومقيدين ومسدودة افواههم وممددين على الحصى امام الفندق ، ومن وقت الى آخر كان الحراس يفركون وجوه هؤلاء الاسرى بالحصى .

قبيل غروب الشمس ارسل المتقدمون والمتوسطو الاعمار الى بيوتهم والشبان الى المعتقلات داخل اسرائيل ليطلق سراحهم خلال بضعة أيام او أسابيع بعد الحرب . ووضع موظفو محطة الاذاعة في الخلاء على سفح تلة مع غيرهم من الاسرى وفوهات الرشاشات مصوبة اليهم ثلاثة ايام دون طعام او غطاء وكانوا يهددون في استمرار بالاعدام المعجل ثم اخلي سبيلهم .

وفي دقائق معدودة وصل المظليون الى البناية التي اسكن فيها بعد ان اجتاحوا الحرم . تذكرت بغتة الطريقة التقليدية لدخول الابنية المشبوهة في الحرب ذلك لاني تدربت التدريب العسكري فركضت وفتحت الباب اذ سمعت صوت اقدامهم على الدرج . احد جيراني لم يفعل ذلك بسرعة كما فعلت انا وهو الان اطرش من صوت انفجار القنبلة التي ألقيت في ردهة داره .

عندما اندفع المظليون داخل بيتي والشرر يلمع في عيونهم وهم يمعنون النظر في ارجاء القاعة ذات الابواب التي منها نخرج الى انحاء المنزل ورشاشاتهم مصوبة الى صدري ادركت حالا ان هؤلاء الذين اقتحموا المدينة المسورة بمثل هذه النار وبالكاد اضطروا الى اطلاق عيار واحد (خسروا فقط اربعة قتلى حالما صاروا داخل الاسوار كما قال قائدهم) واصبحت في قبضتهم ، كانوا مرعوبين . « نحن اميركيون، اميركيون » ، صرخت في وجوههم من الرعب في قلبي — كانت عائلتي من حيث مظهرها الخارجي بعيدة عن ان يبدو عليها انها اميركية — وخفت على سري الشخصي — ولوحت « بجواز سفري » امام اعينهم كأنه تعويذة .

قالوا لي مرات : «اخرس» ، بلغة انكليزية فظيعة وطلبوا مني ان ادلهم على المنفذ الى السطح . فصرخت ايضا في حدة : « لا اعلم » كأن المسألة مسألة شرف وكرامة ثم اشرت الى نافذة مسدودة وقلت « هناك » .

صرخوا ثانية : « اخرس ، السطح السطح » . وظهرت علامات التوحش على وجوههم . واخيرا اخبرتهم ان الطريق الى السطح هو عبر الابواب المعدنية الفرنسية قرب المكان الذي كانوا واقفين فيه . غادرنا المظليون ونحن جالسون في ازدحام على منضدة وركضوا صاعدين واطلقوا من الحديقة بعض العيارات النارية من رشاشاتهم بينما جالت في خاطري عوامل الخوف من تصادم التعصب مع رقة الاحساس ، هذا التصادم الذي ينتاب اي أوروبي يجد نفسه اول مرة وسط مدينة عربية من مدن القرون الوسطى تتلوى على نفسها .

لو كانت القدس (او اية مدينة في الضفة الغربية) مستعدة ، ولو وجدت فيها مقاومة جدية ، فان الأزقة التي لا تحصى والشوارع

الضيقة والانفاق والسطوح المتقاطعـــة والبيوت المدعومة جدرانهـــا والازقة المسدودة والاقبية والكهوف المنسية والمخازن تحت الشوارع ، لكانت كل هذه اوجدت الغطاء اللازم للمعارك المدنية وللبلبلة وللاضطراب الكافية لصد فرقة عسكرية اياما .

ولو تكرر هذا الامكان المفترض في انتظام ، اي لو سلح شعب الضفة الغربية تسانده ميليشيا بدائية ، وتدريب على حرب العصابات ، لكان في مقدور الاردن أن يخلق المشكلة الوحيدة التي ما كان الجيش الاسرائيلي ليواجهها ابدا (حتى في ليلة القتال العنيف خـــارج المدينة المسورة على طريق نابلس) .

من الصعب ان نقدر حيال هذه الاوهام التأثير الذي كان سيتم نتيجة حرب حزيران لو ان الجيش الاسرائيلي المهاجم واجه مقاومـــة عربية مسلحة في نواح مسدودة نوافذها داخل مدينة القدس المسورة وفي نابلس وجنين والخليل ورام الله وبيت جـــالا وبيت لحم وقلقيلية واريحا ومخيمات اللاجئين ، بالاضافة الى الخوف من قطع مواصلاته على ايدي عصابات مسلحة من الفلاحين والانصار من القرى ــ وذلك في حالة حرب طويلة تثيرها مثل هذه المقاومة الشعبية .

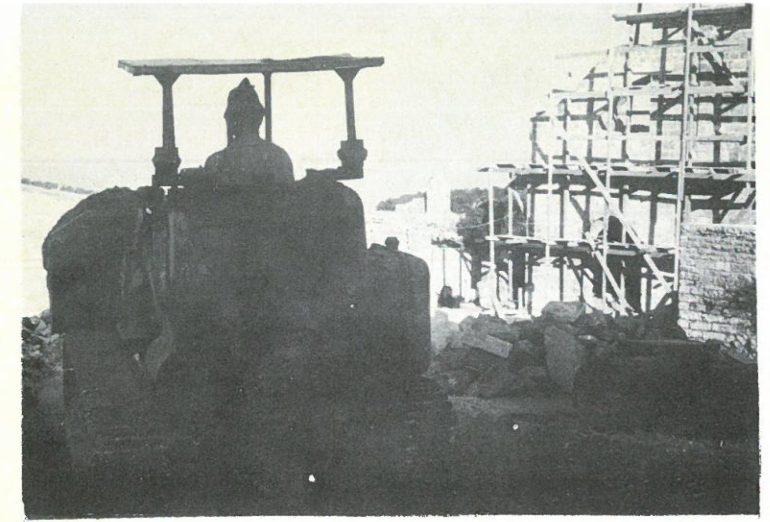
ان عوامل معنوية وسياسية تلعب دورها عندما تشحذ عزائم شعب بكامله وتستدعي نشاطاته للدفـــاع عن أرضه ــ هذه العوامل التي ليس ممكنا تقديرها وحسبانها بواسطـــة الآلات الحـــاسبة في البنتاغون او بواسطة تحليلات الاستخبارات الاميركية .

ولكن هل كان الاسرائيليون يقبلون تحاشي تدمير المدينة الفريدة بالذات من اجل الحفاظ على اماكنها المقدسة وعجائبها لو عرفوا ان النار والخراب ينتظران اقتحامهم لها ؟ هل كانوا يقتحمونها مهما يكن الامر بأسلحة خفيفة وحراب البنادق ويخسرون الالوف مـــن القتلى بغية الابقاء في الاقل على هيكل القدس ؟ او هل كانوا يديرون مدافعهم و« المورترز » التي جعلت الاسوار الشماليـــة الشرقية ترتجف وتهتز عشر دقائق على المدينة بأسرها باسم « الحقوق التاريخية » ؟

ليس لاي عربي ان يسأل حتى هذه الاسئلة .

كان عدم اقامة مركز عربي للرشاشات عـــلى سطح المسجد الاقصى مخجلا الى قدر ما كان مخجلا تحطيم احد ابواب المسجد بقنبلة بازوكا . ان ذلك دليل لا على الاحترام بل على الخسارة عندما يتوقف الرجال عن القتال من اماكنهم المقدسة . ليس حراس المتاحف هم الذين شيدوا مدن الاماكن المقدسة والاعاجيب .

انتهى اطـــلاق النار من حديقتي في دقيقة وصعد سبعة مظليين اضافيين الدرج في مشية عسكرية وخرجوا الى السطح . ورأيت عن بعد ما فعلوا : رفعوا العلم الازرق والابيض فوق حائط المبكى .



البولدوزر يعمل في المدينة القديمة



«حي اشكول» : اول بيوت اسرائيلية في القدس العربية

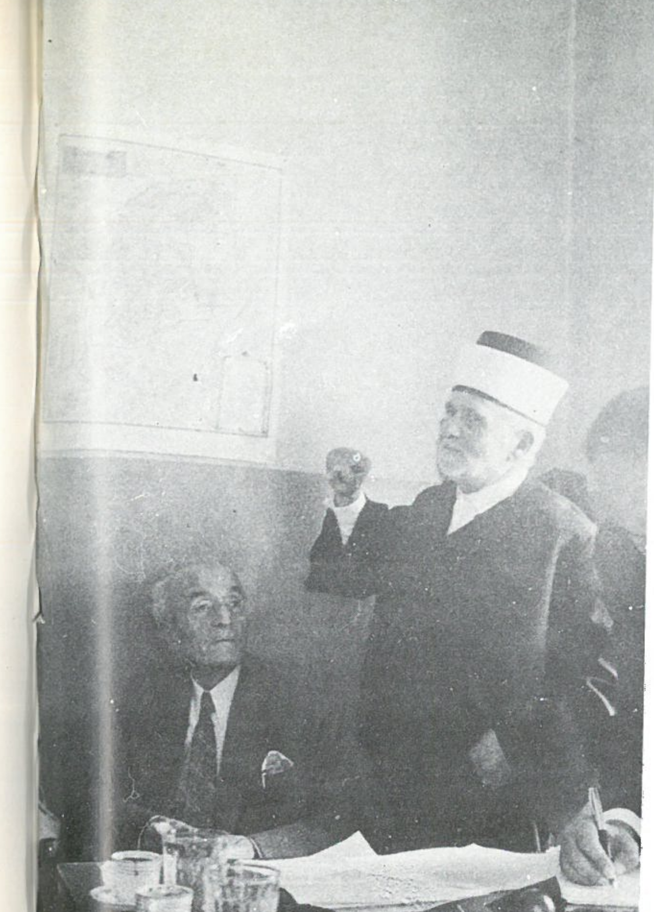


بيوت تهدم خارج القدس

وفي وقت لاحق قرأت كيف ان الكولونيل موشيه بيليس نائب قائد المظليين ربط العلم الى الاسنان الافقية الحادة على السياج الحديدي عند طرف الحديقة وعلت هتافات رجاله الواقفين تحت كما علت من اسرائيل باسرها ومن اوروبا واميركا لما نقلت الى الخارج صور الحادث . وكم كان البولونيون فخورين عندما هتفوا وهم واقفون حول السطح العربي . لم يكن الاسرائيليون قط قبل ذلك يشعرون بمثل هذا الانتصار او بالاقتناع بأن بعض الشرق العربي اصبح أخيرا تحت أقدامهم. في ذلك اليوم قال موشيه دايان للصحافة انه يساند اتحادا بين اسرائيل والاردن . وقال ايضا : « ان البلد الوحيد الذي يقدر على حماية الاردن هو اسرائيل » .

وفيما يتعلق بالكولونيل بيليس فانه قتل بعد أربعة عشر شهرا قرب توباس في مقاطعة نابلس ، حيث وقعت فصيلته في كمين نصبه فدائيو فتح .

عائلة على انقاض البيت المهدم



مفتي القدس يشير الى الاجزاء التي ستضع اسرائيل اليد عليها



وزارة الشؤون الدينية الاسرائيلية تستملك !.

السقوط

بدأ النهب والسلب في الضواحي منذ الصباح الباكر من يوم الثلثاء . اقتحم الاحتياطيون الاسرائيليون الذين كانوا يزحفون وراء المظليين واللواء المصفح معظم الحوانيت على طريق رام الله ، فكانوا يفتحون الشبابيك والابواب المعدنية بضربهم الاقفال بالرصاص، ويدخلون البيوت الخالية من سكانها الذين فروا منها . اخذوا اجهزة راديو ومجوهرات واجهزة تلفزيون ولفافات تبغ ومعلبات وثيابا .

على الرصيف، امام قصر الملك رقصت فتاة جندية مرتدية لباس السهرة بينما نهب رفاقها مخازن المشروبات في الطابق السفلي .

اقتحم مظليون مدرسة التوراة (ايكول بيبليك) الفرنسية وهي مركز فرنسي لعلوم الاثار القديمة على طريق نابلس . قيدوا الخدم الاردنيين الذكور واخذوهم الى معتقل وابقوهم فيه ٢٥ يوما . وضعوا رشاشين وصوبوهما على جميع الاسرى — كهنة وطلاب ونساء اردنيين واولاد . ذلك بأن المظليين كانوا مقتنعين بأن بعض القناصة من الجيش الاردني في الجوار كانوا يطلقون النار عليهم من المدرسة ، لذلك اظهروا صلابة وعاملوا من فيها بقسوة . وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر تركوا الكهنة شريطة ان يبقى اثنان منهم رهينتين في المعتقل ، وانذرهم الضابط المسؤول ان طلقة واحدة من المدرسة تؤدي الى قتل الكاهنين حالا . وبعد غروب الشمس سمح للطلاب والعرب ان يفتشوا عن مأوى لهم في الطابق السفلي .

كانت بين المساجين في « الايكول بيبليك » امراة تدعى السيدة مطر ، ارملة حارس قبر الحديقة القريب الذي قتل في الحرب . كانت تلك الحديقة المحرجة الساكنة في اعتقاد بعض الطوائف البروتستانتية المكان الذي دفن فيه يسوع . وفي عشية الاثنين غادرت السيدة مطر واولادها مع مساعدهم الالماني منزلهم في الحديقة ولجأوا الى القبر ذاته .

في الصباح الباكر من يوم الثلثاء خلال فترة وقف اطلاق النار غادر الحارس القبر وقصد منزله ليشرب فنجانا من الشاي . وفي طريقه

قرع المظليون البوابة الخارجية في عنف فجاء وفتحها لهم ورحب بهم بالانكليزية فما كان منهم الا ان صرعوه قتيلا برصاص رشاش .

ركض المظليون في الحديقة وعند بلوغهم القبر صوبوا نيرانهم الى داخله ولما توقفوا ليحشوا رشاشاتهم هرولت فتاة المانية خارجة من القبر فتراجع المظليون الى البوابة وهم يطلقون على البيت . وعاد بعض الاصدقاء مع السيدة مطر بعد بضعة ايام الى المكان المقدس ليدفنوا الحارس في الحديقة فوجدوا المنزل منهوبا ومحفظة القتيل مفقودة .

ونهبت الحوانيت الحديثة في شارع بور سعيد وشارع صلاح الدين يومي الثلثاء والاربعاء . وكان المظليون يأتون بسيارات الشحن ويحملون عليها البرادات والمدافىء والمفروشات والثياب التي لم تتضرر في القتال ويأخذونها . وجاؤوا مسرعين عبر الارض المجردة من المحاربين غير مبالين بالالغام لينهبوا مركز هيئة غوث اللاجئين الفلسطينيين في الشيخ جراح .

ان المكان الاكثر انعزالا خارج اسوار المدينة والقريب منها يدعى المصرارة وهو البقية الباقية من حي عربي فخم سقط ، ثم اخلي ، في ايدي الاسرائيليين في حرب ١٩٤٨ . وبما انه كان خاليا من اكياس الرمل الواقية ومن الملاجيء فقد تعرض لنيران الاسلحة الخفيفة التي اطلقت على الحدود في يوم الاثنين فلجأ معظم سكانه الى بيوت اقاربهم واصدقائهم في المدينة . وبعد مرور ايام رجعوا ليروا منازلهم منهوبة ولا شيء فيها . اما منازل العائلات التي بقيت فاقتصر النهب فيها على النقود والمجوهرات الخفيفة الحمل التي كان في الامكان خطفها خلال « التفتيش الدائم عن السلاح » . حتى داخل اسوار المدينة كان هذا النوع من النهب محدودا .

في الازمنة الغابرة سقطت مدن اخرى مشهورة (حتى القدس ذاتها) في ايدي فاتحين اكثر قسوة . ولم اسمع بأي حادث اغتصاب . لكن الفظائع ترافق الحروب دائما . وسآتي الى ذكر بعض ما وقع منها في القدس العربية نظرا الى رفض اغلبية الصحف الغربية الغارقة في بهاء « انتصار داود العجائبي على جوليات الجبار » ان تعالج هذه الاضطرابات وكذلك لوجود تفسيرات سياسية مهمة بالنسبة الى بعض الحوادث .

عاين الاسرائيليون متحف فلسطين للاثار القديمة رسميا وفي سرعة حالما وضعوا أيديهم عليه في القتال الذي جرى في الساعات المتقدمة من ليل الاثنين وذلك بقصد النهب فأخذوا الى الجانب الاخر من المدينة الدروج القديمة التي اكتشفت في البحر الميت الاردني ، وكان القتال ما زال مستمرا . وتلك الدروج قال عنها مشاهير علماء الاثار

الاميركيون في المدينة ان المكان المحفوظة فيه منيع فعلا بينما ادعى المدير الاسرائيلي الجديد للمتحف ان ما جرى كان لاجل وقايتها وستعاد الى المتحف ! وأعلن الاسرائيليون أثر ضم المدينة العربية ان دروج البحر الميت (بما فيها حصة الاردن) اصبحت ملكا لاسرائيل . بعد ذلك نقلت ايضا الى الجانب الاسرائيلي من المدينة وعرضت هناك رسائل لاشيش التي يمكن اعتبارها أثمن ما يحتويه المتحف من تحف . ومن الصعب تقدير المواد الاخرى التي ذهبت الى اسرائيل .

ودرج « الهيكل الجديد » ، الذي اعلن عن اكتشافه بعد مدة من حرب حزيران ، والذي وصف بانه احدث اكتشاف اسرائيلي ، اخذ من منزل كندو في بيت لحم . وكندو تاجر اثريات عربي مشهور . جرى ذلك والقتال ما زال قائما . وقد اقام كندو الدعوى امام محكمة اسرائيلية مطالبا بالثمن . ولئن اخذ كندو مالا ثمنا لهذا الدرج فان مشتراه ونقله من الاردن دون موافقة عمان يكونان سرقة كأية سرقة بموجب القانون الدولي .

داخل المدينة المسورة كانت تصرفات الاسرائيليين في اولى ساعات الاحتلال اكثر لياقة . وقعت حادثة او اثنتان هما طعن بالخناجر في اروقة داخلية . والاسرائيليون كانوا يترددون في الدخول الى المحلات المزدحمة بالسكان . وركزوا قواهم داخل الحرم واحيانا حيث تتقاطع ازقة المدينة مع شوارع الاسواق تقاطعا واسعا .

يوم الخميس صباحا تجاسرت انا وكسرت قانون منع التجول وبمظهري الاوروبي وجوازي الاميركي دخلت المدينة القديمة ومشيت في اسواقها وازقتها ببطء ، مارا عند نقاط التفتيش الاسرائيلية متمتما اقوالا لا معنى لها عن السفارة الاميركية .

وخارج الاسوار كانت الارض في الشوارع مليئة بالزجاج المكسور وخطوط الهاتف المتقطعة والسيارات العسكرية والمدنية المحروقة وباكوام الانقاض والحجارة من تلك البيوت ، حيث وقف الجيش الاردني وقاتل .

وعلى طريق نابلس كانوا ينتشلون جثث جنود الكتيبة الثانية المنتفخة المتيبسة من كل حفرة مدفع تقريبا . وكان رجل اسرائيلي متقدم في السن ملتح صلب الجسم من كفاحه مع عصبة « شترن » يشرف على الرجال العرب الذين ارغموا على القيام بهذه المهمة الدنيئة البشعة . وكان الذباب يحوم حول الجثث التي كان اكثرها قطعا مهشمة ناهيك بالرائحة الكريهة المنبعثة منها . وخرج العرب اثر اتمام المهمة وكلهم يتقيأون اما الاسرائيلي العجوز فلم يظهر عليه تأثر ولم ترف له عين .

وبعد طريق نابلس وشارع صلاح الدين كانت المنطقة التجارية

وضواحيها بالكاد مشوهة . وزجاج شباك « كرسمس هاوس هوتل » (فندق بيت عيد الميلاد) حطمه الناهبون الذين افرغوا بطريقة منتظمة الاربع والعشرين غرفة من اجهزة الراديو وولاعات السجاير والمفروشات . وكان س. الصحافي سابقا وصاحب الفندق واقفا في ردهة الفندق المحطمة يصب قليلا من الخمرة الباقية في مستودع الفندق بيد ترتجف في كأسين ويقدمهما الى شخصين اسرائيليين مسلحين كانا يطوفان وعلى شفتيه ابتسامة مصطنعة فاترة وبين فترة واخرى ينطق كأنه مرغم على ذلك كلمة « شالوم » .

تأثرت جدا من وضع صديقي المحزن لكنه اصعدني معه الى غرفة المؤتمر حيث وجدت ناشر جريدتي وموظفيه الذين قصوا علي كيف ان ثلاثة شرطيين اسرائيليين اوقفوهم وحجزوهم في الفندق وكان اثنان منهم واقفين عند الباب وفي ايديهما رشاشات « اوزي » بينما كان الثالث يفتشهم ويأخذ منهم الدراهم والخواتم والولاعات .

وكان س. ينطق « الشالومات » مرعوبا ومرتجفا . وكان من طبيعة مثل هذه المقابلات ان الصحافة الاسرائيلية والعالمية رأت فيها دلائل « مصالحة عربية — يهودية في قدس متحدة » — واستمرت تثرثر وتهذي في تلك الايام الاولى من الاحتلال عن « التلاقي المأمول بين الشعبين » .

عند الظهر رفع منع التجول بضع ساعات فرافقت اصدقائي الى بيوتهم في الشيخ جراح . وفي اليوم التالي اصبحت اذونات التجول مطلوبة حتى من الاجانب ، لذلك صار تجوالي محدودا مثلما كان لجيراني .

والخميس ليلا سمع صوت محركات صاعد من حائط المبكي ونظرا الى التشديد في منع التجول لم اجرؤ على الذهاب الى الحديقة ولكن من نافذة غرفتي رأيت عمالا اسرائيليين يركبون نورا كاشفا كبيرا في أسفل الحائط وسمعت صوتا كصوت مثقب يحفر في الارض ، ودام الصوت الليلة بطولها . وهنا نص ما دونته في مفكرتي عن ذلك اليوم :

« أظن أن اقرب المنازل الى حائط المبكي توشك ان تخسر حدائقها من اجل توسيع الزقاق » .

بقيت « البولدوزر » تعمل طوال الليل على ضوء مولدات الكهرباء متنقلة من بيت الى بيت . وعند الصباح اصبح نصف الحي مهدما . اما الستمئة سكان تلك المنازل فقد أمروا بأن يغادروها أثر غروب الشمس قليلا ومنحوا ساعة ليحملوا ما استطاعوا حمله من البيوت . واذ كان الكثيرون من الرجال في المعتقلات القيت المهمة على النساء والاولاد فكافحوا وجدوا قدر استطاعتهم في نقل الفرش والامتعة ثم اختفوا في المدينة يفتشون عن مأوى عند اصدقائهم واقاربهم . ودفنت

تحت انقاض بيتها الصغير وهي حية ، عجوز طرشاء لان الهدامين كانوا في عجلة شديدة .

انتهى العمل في ايام قليلة وكان جاهزا لمهرجان « شافيوت » وتألب خمسون الف اسرائيلي في تلك الساحة المنشأة فجأة ليقفوا على تراب تلك البيوت التي هدمت ويحمدوا الله .

كان حي باب المغاربة حيا زاهيا ذا ميزة اثرية خاصة هي شرفات سطوحه المطروشة حديثا وحدائقه وبيوته الانيقة غير الملتصق بعضها ببعض والمبنية على طراز البناء في شمال افريقيا منذ مئات السنين لتؤوي الجنود المراكشيين الذين كانوا يشكلون حامية القدس من قبل العثمانيين .

وكان في الحي اكثر من ١٣٠ بناية بما فيها جامعان في مساحة تعادل مساحة ثلاث مجموعات من البنايات في المدينة .

وعند بدء الهدم وصفت جريدة « جروزاليم بوست » الحي بانه قذر حقير البيئة مزدحم . وبعد يومين قيل انه كان مهجورا بكامله بملء ارادة سكانه . واني لاتوقع له مع الزمن أن يمحى من صفحات التاريخ الصهيوني المتطور .

لكن امثال هذه الحوادث تتطلب التسجيل. فذهبت في اليوم التالي الى القنصلية الاميركية لاخبرها . وبعد اسبوع جاء ج. احد كبار رجال الاعمال اليهود الاميركيين الذي سبق ان عرفته في الولايات المتحدة الى القدس وزارنا . اظهر اهتمامه بحالتنا وهل كنا نتمتع بالمناظر من حديقتنا . واخبرني بعد ذلك على حدة في مكتبي انه والاسرائيليين عرفوا من رئاسة الوزارة ان موظفي القنصلية المحلية قدموا تقريرا الى واشنطن عن هدم حي المغاربة واضاف : « حاولوا ان يحموا المصدر الذي استقت منه القنصلية الخبر ، لكننا عرفنا ان المصدر هو حتما رجل واحد . اذا اتيت لعبة اخرى مثل هذه تطرد من البلد » . قال دون حقد وباسلوب بارد رزين لم اقدر الا ان اعجب به : هل سأكون رزينا هادىء الاعصاب مثله غدا في الليل او بعد اسبوع عندما يهدم الفدائيون بيتا في المدينة الجديدة ؟

فكرت في كل تغيير معقول لاشتري سنة من الوقت . وبعد فترة هدأت اعصابي . وكان ج. في منتصف حديثه عن الادب اليهودي الفريد فيما يتعلق بالاحتلال الرؤوف عندما هرول احد جيراننا صاعدا ليخبرنا عن نهب الاسرائيليين للمدرسة الدينية وللجامع في الطابق الارضي .

نزلت الدرج ركضا في الوقت الملائم لامنع جنديا ومدنيين من المضي حاملين ملء اذرعهم كتبا . كان هؤلاء الاسرائيليون قادرين على الحمل . لم يكونوا من الاوغاد الاوباش ، وتمتم احدهم مرتبكا قائلا أنه تلميذ ، وقد ظن العرب لا يحتاجون الى القرآن ومجموعات من

الاحاديث (احاديث منقولة عن النبي) التي اخذها (استنتج انه ظن البناية مهجورة) . كان وضعه كما ظهر سياسيا في الاكثر وليس اجراميا وجزءا من الشعور نفسه الذي دفع العديدين من مشاهدي المناظر الى باب بيتنا وابواب بيوت الجيران في الايام التالية . واذا لم يكن الباب مقفلا باحكام دخلوا دون استئذان فشاهدنا افراد عائلة من الاسرائيليين يتجولون في الشقة وعلى النوافذ هادئين يتفرجون على المناظر او في الغرف يتفقدونها . واذا كان الباب مقفلا قرعوه وطلبوا الدخول « ليلقوا نظرة الى المسكن » .

كأن العرب (واغلب الظن اناس مثلنا يعيشون بينهم) ليسوا الا حراسا لمتحف اسرائيلي متسع الارجاء في مخيلتهم . وكأن حقوق العرب الخاصة بمنازلهم وعلاقتهم تقريبا وبكل ما شيده الانسان من بناء مدني في القدس أمر لا يقره الاسرائيليون على مستوى عاطفي (في احسن الحالات ينطوي على تسامح وقتي لوجود العرب كحراس) .

كان الاسرائيليون الثلاثة الذين اوقفتهم عند الباب مستعدين ان يردوا الكتب لكني داومت الحديث معهم الى ان وصل ج. فطلبت منه ان يوضح لهم بالعبرية لماذا تعتبر السرقة من جامع عملا غير انساني كريم .

وكان عدد كبير من المتفرجين قد تجمع في الساحة . ولما بدأ ج. يتكلم عن الاداب الاسرائيلية الفريدة صاح الجمع صيحات الاستهزاء . انا لا افهم العبرية انما موجة الاحمرار التي علت وجه ج. لم يكن ليستحقها الا شخص من وراء البحار ارغمته حالة الحرب على البقاء في صهيون فاستقر « كمحب للعرب » .

قبل غروب الشمس خرجنا معا نتمشى في المدينة القديمة وتجنبنا سوق القطانين ، تلك القاعة ذات الكهوف التي سمح الاتراك بان تجاور النفايات والقذارات والتي وصفها كربويل بأنها مثال لبناء قاعات الاسواق في انحاء سوريا كلها . أبقى البريطانيون على هيكل السوق ولكنهم لم يردوا اليها مجدها المملوكي القديم بكامله وهي باقية ممرا مظلما كالحا بين الواد والحرم الشريف .

ذلك اليوم رفت فيها اضواء خافتة من مصابيح زيت الكاز وكان ضمنها عدد كبير من مئات العائلات العربية التي طردت من « الحي اليهودي » في المدينة القديمة في نهاية أول أسبوع من الاحتلال . وغيرهم الكثيرون واصلوا السير الى باب العمود حيث تمكنوا من الصعود الى الباصات وسيارات الشحن الاسرائيلية التي كانت جاهزة في الاسابيع الاولى للذهاب الى النهر والى المخيمات الجديدة للاجئين التي كانت تنتظرهم على الضفة الاخرى . حتى في ساعات التشديد على منع التجول ، كان يسمح للعرب بالتجول في القدس اذا استطاعوا ان يثبتوا

انهم في طريقهم ليركبوا باصات اللاجئين .

وعوضا من ذلك مشينا صعدا الى جبل صهيون على الطريق التي تبدأ من الحي المغربي والساحة التي فتحت حديثا قرب باب النبي داود (بوابة جبل صهيون) التي قطعت عن المدينة بواسطة التراكتورات الاسرائيلية ، هذه التراكتورات التي حولت مصنعا للبلاستيك كان يشغل ٢٠٠ عامل عربي الى حطام بالاضافة الى مصنع ارمني صغير لبلاط الاسمنت ومركز لاطعام اللاجئين خاص بالاونروا .

خرجنا من المدينة القديمة وسرنا الى جبل صهيون . ولما التفت الى الوراء كانت تعلو القدس احمرارة الغروب الوردية وهي من أروع المناظر التي احبها واحب وقت ظهورها اعظم حب . واذ تهبط رفوف كبيرة من السنونو وتتمايل في النور الخافت حول قبب المدينة يعلو أذان المغرب من مكبرات الصوت على المآذن .

سألت ج. هل الشائعات عن ضم قريب الحدوث صحيحة ، فأجاب انها كذلك .

فقلت : « اذن لا سلام » .

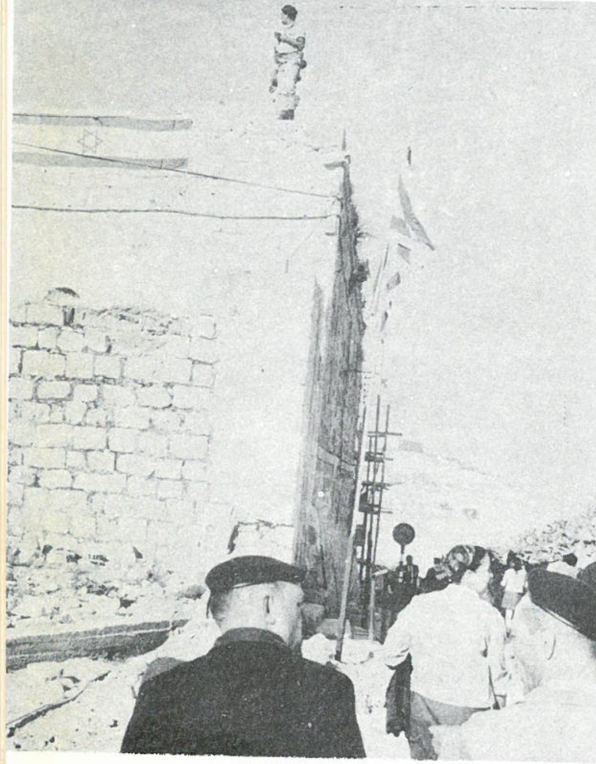
فاجاب : « قد يكون كذلك ولكن يجب ان تأخذ اسرائيل هذه المدينة » .

داخل المدينة القديمة تولى صبحي غوشه ، وهو طبيب عربي مشهور يدير عيادة مجانية ومدرسة ليلية للفلاحين والعمال ، مهمة دفن الموتى ، (وكان قضى معظم السنة السابقة في سجن اردني بسبب الدور الذي قام به في حركة القوميين العرب) ، بالاشتراك مع رفاق يسوع ، وهم اخوية كاثوليكية راديكالية كان يعيش مؤسسها الاب بول غوثيه في ذلك القسم من الحي الاسلامي في المدينة القديمة الذي ضربه الاسرائيليون بالقنابل . وكان « رفاق يسوع » يسعون بالافعال والصلوات « لتحرير جميع المستعبدين والشعوب المظلومة والعالم الثالث المستثمر والمصاب بالفقر » . هنا في الشرق الاوسط تعهدوا ان يسعوا لمصالحة العرب واليهود وانشأوا مضافات في بيت لحم والقدس العربية والناصرة .

واثر حرب حزيران بمدة وجيزة نشرت المجلة الباريسيةالاسبوعية « تيموانياج كريتيان » مذكرات الاخت ماري تيريز من اعضاء الاخوية. لم تكن لي معرفة بالاخت او بالاب بول . ولما استلمت نسخة من المذكرات وعنوانها « الحرب في القدس » كان من المستحيل ان التقي بهما لان الرفاق كانوا قد اختفوا من القدس.وسمعت بعد ذلك من أوساط كنسية عربية ومن مقيمين فرنسيين انهم غادروا في اجازة اثر نهاية



«يوم الاستقلال» ... لا تخرجوا الى السطوح!..



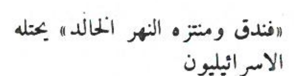
جنود على السطوح في الحي الارمني لحماية الاسرائيليين القادمين الى المدينة (ايار ١٩٦٨)



مكتب سياحي اسرائيلي داخل المدينة القديمة قرب بوابة يافا



اول اليهود القادمين الى الخليل



«فندق ومنتزه النهر الخالد» يحتله الاسرائيليون





عائلة يهودية على مدخل الفندق

الحرب بمدة قصيرة وان سلطات عالية في الفاتيكان نصحتهم بعدم العودة بعد نشر المذكرات والشكاوى التي ارسلها الاسرائيليون الى روما .

وكانوا خلال القتال جاؤوا بالموظفين الى مستشفى انشىء على الفور في ليثوستراتوس — احد الاديرة على طريق فيا دولوروزا — ومنحوا الاذن بالتجول في حرية في المدينة وبقية مناطق الضفة الغربية من ضابط طبي اسرائيلي عطوف .

قالت الاخت ماري تيريز في مذكراتها : « من الضروري القول دون لبس أن افراد الموجة الاولى من الجنود الاسرائيليين كانوا محتشمين وانسانيين وشجعانا . وكان افراد الموجة الثانية لصوصا ونهابين وقتلة احيانا . اما افراد الموجة الثالثة فكانوا اكثر ازعاجا اذ ، كما ظهر ، تصرفوا بدافع رغبة ثانية هي القيام بهدم منظم » .

وصلت الاخت ماري تيريز والاب بول الى بيت لحم يوم الجمعة ليشاهدا الدبابات ما زالت واقفة امام الباسيليكا ومدافعها مصوبة نحو المدينة ، وسيارات اسرائيلية في الشوارع كانت تعلن باللغة العربية عبر المكبرات أن على الناس ان يغادروا بيت لحم ويذهبوا الى عمان ، وان بيوتهم ستضرب بالقنابل اذا بقوا . وقالت ماري تيريز : « ان هذا الترغيب وهذا الضغط النفسي لارغام العرب على الفرار كانا قاسيين جدا . وبدأنا نفكر ان الاسرائيليين قد استعملوا الطرق اياها في المرة الاولى (١٩٤٨) فخلقوا مشكلة اللاجئين » .

وبعد ايام قليلة ذهبت الاخت ماري والاب بول الى الناصرة حيث استأجرا سيارة ورجعا الى الضفة الغربية عن طريق جنين ونابلس ناقلين الجرحى من القرى المجاورة في جولات متكررة على المستشفيات العربية التي حجز الاسرائيليون سيارات الاسعاف التي تملكها . وشاهدا النهب والسلب في كل مكان .

... « رأينا مئات من العائلات في نابلس لاجئين تحت شجر الزيتون نائمين في الخلاء وقيل لنا انهم جاؤوا من قلقيلية ولم يسمح لهم بالعودة اليها . ذهبنا الى هناك لنرى ما الذي يجري ، وكان الاسرائيليون ينسفون المدينة بالديناميت . واتى المدنيون الاسرائيليون لينهبوا وكان اثنان منهم سائرين في الشارع وعلى رأسيهما « القلبق » حاملين الحقائب . راقبناهما وهما يقتربان منا فوضع احدهما يده على زناد رشاشه واذ لم أر حركته اشرت الى الحقيبة وسألته بالعبرية : « هل هي ثقيلة ؟ » وقفنا لحظة وجها لوجه ثم ادارا وجهيهما ومضيا . هو الشيطان كان يتعسعس .

« كان ضابط اسرائيلي شاب يسوق سيارته بسرعة قصوى وما كان منه الا اوقفها امامنا . فسألناه متظاهرين قدر الامكان بالبله : أين نحن ؟ نظر الينا بعجرفة وكبرياء وقال بالعبرية : هذه كانت

قلقيليه وهي الان كفارساها (كفارساها اقرب مستعمرة اسرائيليــة الى قلقيلية) » .

رجعا الى جنين ووجدا المستشفى خاليا من الادوية قاتلة الجراثيم (انتي بيوتكس) أو ضد الغرغرينـــا (التسمم) ، والصليب الاحمر الدولي محظورا عليه دخول المنطقة والعمل فيها بموجب اوامر الجيش.

وطرد من طولكرم ١٥٠٠٠ عربي ووضعوا في سيارات شحن او ارغموا على المشي قائلين لهم : « اذهبوا الى حسين » . ولجأ الكثيرون منهم الى اصدقاء او أقارب لهم في منطقة نابلس وعادوا بعد ذلك الى بيوتهم . الوف اكثر من هؤلاء هاموا على وجوههم جماعات جماعات منعتهم الدوريات الاسرائيلية من دخول القرى متمسكــة بقانون منع التجول لكنها كانت تحثهم على التوجه الى الشرق والنهــر . وكثيرا جاءتهم بسيارات شحن ليمضوا عليها الى وادي الاردن .

مثل طولكرم وقلقيلية ، لكن اصغر حجما واقل سكانا ، كانت قرى اللطرون الاربع عمواس وبيت سير ويالو وبيت نوبا ، والقرى الثلاث في الخليل بيت آوا وبيت مرسين وزيت . جميعها قرى الحدود الاردنية موجودة بموجب اتفاق وقف اطــلاق النار سنة ١٩٤٨ على الحدود او قريبة منها . وكان يسكن في هذه القرى السبع اكثر من ٢٠،٠٠٠ فلسطيني .

هدمت كل هذه بعد الحرب في بضعة ايام . وكانت موجودة داخل الارض الخصبة العريضة الواقعة على طول الحدود القديمة التي كان اتفق جميع الزعماء الاسرائيليين تقريبا على وجوب تسليمها رسميا من الاردن الى اسرائيل في حالة الوصول الى ايــة تسوية سلمية . انها المقاطعة التي قد تخضع لما اشارت اليه وزارة الخارجية الاميركية من انه « تعديل ثانوي للحدود » .

كان ايموس كينان الكاتب الاسرائيلي المشهور يعمل في احــدى الوحدات المعينة « لتعيين الحدود في اللطرون » وقد بعث بتقريره عن هــدم بيت نوبا ضمن رسالة شخصيــة الى السياسيين الاسرائيليين واعضاء الكنيست (المجلس النيابي) ومحرري الصحافة (١) .

قال كينان ان وحدته امرت بارغام جميع العرب الباقين علــى النزوح ، وبمنع اي عربي عائد من مخبئه اثر سماعه اذاعات الراديو الاسرائيلي التي كانت تحث العرب على الاياب الى بيوتهم ، من دخول القرية . ثم جيء بالجرارات .

---

(١) طلب كينان الا ينشر المستند اذ لم يشأ ان يسبب ارتباكا للحكومة . انما صحافة راديكالية متخفية (« اخبار اسرائيل الاستعمارية ») التي يحررها الاسرائيليون المبعدون في لندن حصلت على التقرير وطبعته دون اذن كينان وذلك في اشهر بعد الحرب .

« تراب الهدم والحجارة طمر الدجاج والحمام وتحولت الحقول الى ارض جرداء امام انظارنا . ان الاولاد الذين ركضوا صارخين على الطريق سيصبحون فدائيين بعد ١٩ سنة في الجولة التالية .

« وهكذا ضيعنا الانتصار » . بهذه العبارة انتهى التقرير .

لم « تكتشف » قرى الخليل الا اواخر حزيران. «اكتشفتها» وحدة طبية اسوجية متنقلة كانت تطوف منطقة الحدود مرة كل شهر . وجد الاسوجيون عدة الاف من العرب مزدحمين في خيام منصوبة كيفما كان وفي مغاور جعلوها مساكن حول انقاض قراهم . الا ان الحظ رافق الخليليين . ذلك بأنهم حين طردوا في اليوم الاول مثل الالوف من عائلات الفلاحين نحو الشمال سمح للذين لم يفروا حالا الى الشرق بالرجوع والسكن بين الانقاض فعاشوا متغذين بالاعشاب وانتزعوا ما أمكن تخليصه من انقاض بيوتهم . وفي اشهر قليلة ، وعلى اثر حمــلات الجرائد الانتقادية ، وافق الاسرائيليون على السماح لهم باعادة بناء قراهم .

في اللطرون أرغمت الصحافة كما أرغم كل شخص تقريبا ان يبقى خارج المنطقة ، وطرد القرويون من بيوتهم. ولم يصل اي نبأ الى القدس عما حدث الا حين استطاع الاب بول والاخت ماري تيريز دخول المنطقة في ٢ تموز (وذلك بالسير في سيارتهما على طرقات خلفية فرعية) . ولما وصل الراهب والراهبة الفرنسيان الى الدير في اللطرون كــانت الجرارات والمحاريث من الكيبوتزم (المزارع الجماعية) الاسرائيلية في الجانب الاخر من الحدود القديمة قد باشرت حرث حقول القرويين . وشرح الاب مدير الدير كل ما حدث . وتقريره مماثل تماما لتقرير كينان ويؤيد شهادات القرويين .

واذا كان قد حدث في ١٩٦٧ ضغط وارهاب وتدمير بالجملة فان العرب نجوا من المذابح المدبرة ومن اجراءات الطرد الاكثر عددا التي وقعت في ١٩٤٨ . قد يكون وجود المئات من مراسلي الصحف الاجنبية ــ وبعضهم عمل اقصى المستطاع للتهرب من الاسرائيليين وللتجوال في المقاطعات المحتلة على مسؤوليته الخاصة ــ احد الدوافع التي كانت سببا لكبح الجماح نسبيا . كما ان حالة العالم قد تبدلت في عقدين ، ولم تكن حينذاك دول كبيرة كفرنسا والاتحاد السوفياتي تريد الاستجابة سياسيا لمعونة العرب على تخفيف الامهم . وكلتاهما كانت مستعدة على الاقل لمناقشة قضيتهم في الامم المتحدة ، او مثل الصين التي آزرت قضية فلسطين . والذي حدث حقا في حزيران ١٩٦٧ اوجد فينا نحن الذين استندوا الى روايات القرويين والكتب النادرة عن حرب ١٩٤٨ شعورا واضحا بما حدث حتما في تلك الحرب مهما يكن صداها خافتا .

في ربيع ١٩٦٨ بعد الحرب بعشرة اشهر ذهبت بالسيارة الى



تظاهرة عربية تتجمع داخل حرم جامع الاقصى بعد صلاة الجمعة



اللطرون في رفقة لويس لوماكس وزوجته اللذين قدمـا ليأخذا صورا تلفزيونية لاسرائيل . وكانت الجرارات قد وضعت اطنانا من التراب فوق انقاض بيوت القرى ومهدت الارض التي نبت عليها العشب والازهار أثر امطار الشتاء . ولولا بعض قضبان حديد صدئة ناتئة فوق التراب هنا وهناك تفضح سر الانقاض تحتها لما شككنا في ان تلك البقعة ليست حقولا طبيعية في الاصل . والاسرائيليون من المزارع المجاورة زرعوا شجيرات من اليوكالبتس السريع النمو بحيث تظهر تلك البقعة كأنها من ضمن برنامج التحريج . وقبل ذلك كانت على تلك الارض البيوت المبنية من الحجر الصلب والمحاطة ببساتين الخوخ والزيتون والمشمش وكروم العنب . وبين اشجار الفاكهة كانت مدرجات تزرع فيها الخضراوات التي كانت موضع عناية الفلاحين الذين اوجدوها بصبر وجهد من تراب الصخرة القديم . وفي بضع سنوات ستكسو القرى المدفونة — يالو وعمواس وبيت نوبا — غابة صغيرة . ومرشدو السياح سيشيرون الى تلك المواقع بفخر واعتزاز ويقولون للذين داخل الباصات : « انظروا كيف جعلنا الصحراء تنبت الازهار ! » .

كان رئيس البلدية روحي الخطيب قد بقي في دير اللاتين داخل المدينة المسورة الى الخميس بعد الظهر . وفي فترات رفع منع التجول القصيرة كان يتجول في انحاء المدينة ليعاين حالتها المؤسفة . وصباح الجمعة ذهب الى مكتبه في البلدية مع عدد من موظفيه فجاءه ضابطان اسرائيليان وسألاه ماذا يمكنهما ان يفعلا ليساعدا على اعادة الحياة الطبيعية الى القدس العربية . ولما كانت البلدية تعنى بشؤون المـاء والحالة الصحية فان عملها الجديد شمل تنظيف المـدينة من الجثث والانقاض والنفايات التي انتشرت روائحها الكريهة . وساعد موظفو روحي في العمل على اعادة الكهرباء . ونظرا الى فقدان السيارات والشاحنات التي اخذها الجند الاسرائيليون ، طلب رئيس البلدية ان يعين ضابط ارتباط في البلدية ليدبر شؤون النقل وما شاكلها .

لم تعد الكهرباء والماء الى كل احياء القدس العربية الا بعد مرور أكثر من اسبوع . وخارج الاسوار كانت كل الاسلاك مقطعة وانابيب محطة الضخ معطلة ومحطات الكهرباء مهدمة بالقنابل .

في الاسبـوع التالي دعي رئيس البلديـة الى مركز الحـاكم العسكري الاسرائيلي الذي أمره ان يعلـم السكان المدنيين بوجوب تسليم كل الاسلحة . ولما أجاب الخطيب ان هذه القضية ليست ضمن صلاحياته بل من اختصاص حاكم المنطقة والبوليس صرخ القائد في وجهه ان عليه ان يطيع وامره ان يخرج الى الشوارع حيث لم يكن يسمح

سوى « شالوم » . وكان الاسرائيليون المتجولون في شوارع القدس يكررون دائما : « نريد السلام شالوم شالوم شالوم » . حتى ان هذه العبارة اصبحت علقما في حلق كل عربي .

في ٢١ حزيران رفع الجند الاسرائيليون العلم فوق البلدية استعدادا للزيارة الرسمية التي عزم تدي كولك رئيس بلدية القدس الاسرائيلية على القيام بها مع الحاكم العسكري الجديد للمدينة العربية . وعند وصولهما الى قاعة الاستقبال احتج روحي على رفع العلم فوافق الاسرائيليون على انزال علمهم في اليوم التالي .

قال كولك للخطيب : « المدن لا تشهر الحرب بعضها على بعض . دعونا نعش في سلام بصفتنا جيرانا » « ربما بعد بضع سنوات سنوحد القدس » .

بدأت مناورات اسرائيلية خطيرة في سرعة . ففي اسبوع بعد الحرب زار الحاكم العسكري للضفة الغربية حاييم هرزوغ سفير الاردن السابق في لندن انور نسيبه الذي كان قد عاد الى القدس قبل الحرب بمدة قصيرة . طلب هرزوغ من نسيبه رأيه في أمكان ابرام صلح منفرد بين عرب الضفة الغربية واسرائيل يصبح من بعد في متن كيان الدولة الفلسطينية العربية التي ستنبثق من المقاطعات المحتلة . ولمح هرزوغ الى ان دولة الضفة الغربية تكون مرتبطة بمعاهدة وصلات اقتصادية مع اسرائيل والاردن . فقال نسيبه لهرزوغ انه كفرد لا يأخذ على عاتقه وليس عنده الميل ليعالج مثل هذه القضية لكنه قد يدعو الزعماء العرب الى اجتماع نيابي خاص لبحث هذا الاقتراح . وفي ١٨ حزيران اجتمع في بيت نسيبه انور الخطيب والدكتور صبحي غوشه واسحق الدزدار والدكتور داود الحسيني وعدد من الوزراء واعضاء المجلس البلدي السابقين وسياسيين شعبيين للاجتماع الى هرزوغ .

وقبل وصول الحاكم العسكري اتفق الجميع على وضع مشترك : لا يبحث مع السلطة المحتلة أي موضوع يتعلق بالسياسة . سكان القدس وبقية مناطق الضفة الغربية غير منفصلين عن بقية اجزاء الاردن . وبموجب اتفاقات جنيف هم مستعدون للتعاطي مع السلطات المحتلة فقط في حقل الخدمات والحاجات المدنية على ان تعالج هذه القضايا في المستقبل عبر رئيس البلدية روحي الخطيب .

هذا البند الاخير كان من قبيل جس النبض سياسيا لانه وان يكن أمر ضم القدس العربية كان لا يزال بعيدا فان الصحافة الاسرائيلية كانت قد امتلأت بالكتابة عن « توحيد المدينة » . والزعامة العربية المحلية كانت مقتنعة بان القدس هي البرهان الثبوتي للاهداف

الجنود الاسرائيليون يدخلون حرم الجامع بأسلحتهم لتفريق التظاهرة ومنعها من الخروج الى الشارع



الاسرائيلية والعلاقات في المستقبل مع العرب .

كان هذا الاجتماع لكثيرين من الحضور الاول لهم منذ النكبة . والمحافظ ما زال تحت تاثير الصدمة . « لا اقدر ان افهم كيف كان ممكنا ان يحصل هذا الامر لنا » قال انور الخطيب للجماعة . ولكن لبعض الوطنيين الراديكاليين جاءت الهزيمة كالفجر الرديء الذي يثبت كابوسا مر في ساعة قبله .

واجاب احدهم : « حدث كل هذا لاننا كنا في غضون عشرين سنة نبني نظام حكم ونحطم امة ــ الفلسطينيين ــ بينما في الجانب الاخر كانوا يبنون دولة لا نظام حكم شخصيا . والان يستطيع كل شخص ان يرى النتائج » .

جاء هرزوغ مع سكرتيره ونائب عن وزارة الخارجية ليعلن ان كل شيء يجب ان يكون قابلا للبحث . ويحتمل ان يكون قد عنى المواضيع التي كان البحث فيها ممنوعا رسميا كارجاع اللاجئين وتصحيح الحدود لمصلحة العرب .

قال هرزوغ عن رضى ان الخلاف كله من اوله الى آخره كان فيه الفلسطينيون والاسرائيليون الفريقين المهمين . واضاف ان في حرب حزيران كانت المعارضة الدائمة قد جاءت من الفرق الفلسطينية الملحقة بجيش الجمهورية العربية المتحدة في غزة . وهذه الفرق قاتلت بشجاعة وخسرت عددا كبيرا من الضحايا واوقعت خسائر في صفوف الاسرائيليين . واعترف بان الفلسطينيين هم على الرغم من كل شيء اصحاب هذه الارض انما للاسرائيليين حصة فيها ايضا . لذلك على هذين الشعبين ان يحلا مشاكلهما . اما فيما يختص بالقدس فلم يأت هرزوغ على ذكرها مطلقا .

تخطى كلام هرزوغ الخطة التي اتفق عليها المجتمعون العرب فلم يعد لديهم ما يقولون سوى شكره على ملاحظاته وشرح الحالة المشتركة . وشاء الخطيب ان يعرض الاقتراح الاسرائيلي على الملك حسين . وبعد تردد قليل منح الخطيب الاذن ليذهب الى عمان للتشاور.

ان الحالة هنا تصف ذاتها بالمزيد من الدقة في غضون الاشهر الستة التالية اذ ان الاسرائيليين كانوا يستحثون اي عناصر لديهم للبحث في قضية قيام دولة في الضفة الغربية (معظمة بحملة من الصحافة الاسرائيلية ذات الشعور الذاتي) .

هؤلاء الفلسطينيون الذين كانوا يعارضون نظام حكم عمان بعناد لاسباب متعددة ــ الوطنية والاشتراكية والشيوعية والعقائدية الاسلامية الاساسية ــ او كانوا في مركز مختار لكنهم ناضلوا للاحتفاظ بوضع مستقل « محلي » او فلسطيني ، اصبحوا الان يلحون اقصى الالحاح على وحدة الاردن كله مرتبطين بنضال سياسي ضمن

المجتمع العربي للاحتفاظ بهذه النقطة . وقاسوا في سبيل جهودهم العذاب في السجون الاسرائيلية او النفي .

اذا كان للهاشميين من امل في العودة يوما الى الضفة الغربية فهم مدينون به للمقاومة الفلسطينية التي الفت زمنا طويلا سجون عمان والمعتقلات في الصحراء .

لكن تلك العناصر التي كانت أكثر تقربا الى نظام الحكم كانت غالبا مستعدة لتتعدى اقتراح المحافظ الخطيب الحذر في صدد التشاور ولتتخلى جهارا عن الاردن . والشيخ محمد علي جابري رئيس بلدية الخليل الدائم والحليف الامين للملك عبد الله عندما ضم الهاشميون الضفة الغربية عقب حرب ١٩٤٨ ذبح الغنم احتفالا بنصر الفاتحين الاسرائيليين وسخر من الملك ببيانات في الصحف معلنا استعداده للتعاون على تكوين دولة الضفة الغربية . وبيت لحم « الجزيرة » الموسرة في الضفة الغربية والمؤيدة للغرب وللقصر بعواطفها ترددت اكثر من اية جماعة اخرى في رفض المقترحات الاسرائيلية الانفصالية .

كانت هذه الاسابيع الاولى افضل وقت للمناورات الاسرائيلية . وهؤلاء القاطنون في الضفة الغربية المؤيدون لعمان او للقاهرة بشيء من الجراة صعقوا في الاساس من الهزيمة الى درجة اصبحوا معها لا يعتبرون ان لا خيار غير الاستسلام . اني اذكر رجالا كانوا قبل الحرب لا يتحملون سماع كلمة انتقاد موجهة الى عبد الناصر اصبحوا الان يلعنون اسمه ويتميزون غيظا اذا عبرت امامهم عن عاطفة متواضعة بعد الحرب للريس .

لو لم يكن الاسرائيليون الى هذا المقدار سيئي السلوك وفاسقين وشهوانيين فيما يتعلق بتملك الارض بين شعب ذي كياسة وأدب رائع وحماسة وغيرة معقولة لكانوا جنوا عطف جمهور من العرب البارزين في حزيران الماضي .

عوضا من ذلك ضموا القدس . ففي ٢٧ حزيران اقر الكنيست شرعية الضم وفي ٢٨ منه نفذ وزير الداخلية القرار .

وفي ٢٩ منه استدعت الشرطة العسكرية رئيس البلدية روحي الخطيب واعضاء المجلس البلدي الى فندق غلوريا المجاور لقاعة البلدية حيث اعلمهم مساعد حاكم القدس العسكري يعقوب سلمون بان البلدية والمجلس البلدي قد حلا .

وبعد ذلك بثلاثة اسابيع كان الرئيس الخطيب واعضاء المجلس البلدي العربي يجتمعون لدرس الرد الذي يجب تقديمه اولا في صدد حل المجلس وثانيا فيما يتعلق بطلب اسرائيل ، عقب الامر بالحل الموجه شخصيا الى كل عضو ، ان يكون عضوا في مجلس ادارة البلدية الاسرائيلية الموسعة . وفي ٢٢ تموز قدموا جوابهم الرسمي الى رفائيل



بعد سنة من الاحتلال ، جنود اسرائيليون في شوارع المدينة القديمة .



امام مكتب الجيش الاسرائيلي داخل المدينة القديمة

ليفي المساعد الاداري لحاكم القدس وهذا نصه :

« لما كان البحث في امكان الانضمـــام الى المجلس البلدي تحت الحكم الاسرائيلي حسب الشكل الذي أعلنته السلطـــات الاسرائيلية يشكل في نظرنا كعرب اعترافا رسمياً من جانبنا بمبدأ ضم القدس الى الجزء الذي تحتله اسرائيل من المدينة والذي لا نقبل به ولا نعترف به كأمر واقع منتهى منه . اننا نعتبر ذلك خرقا لشرعـــة الامم المتحدة وللقرارات التي اتخذت في جلستها فوق العادية الاخـيرة بانه نقض للقانون الدولي واجراء غير قانوني ونطلب اعادة الوضع الراهن الى ما كان قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ .

وبناء عليه نجد انفسنا مع الاسف غير قادرين على قبول دعوتكم لبحث الموضوع » .

ألعاب

في اقل من شهر بعد الحرب بلغ عدد اللاجئين العرب الفارين من الضفة الغربية الى الشرق ٢٠٠،٠٠٠ نسمة . ورجال التلفزيون مع مراسلي الصحف تبعوا هذا الخروج عبر النهر وما بعده الى عمان . ونزل الوف من اللاجئين عند اصدقاء او اقارب او وجدوا اماكن للسكن على حسابهم الخاص . لكن الالوف الذين لا مال لديهم ولا اقرباء تدفقوا على المدارس والجوامع والابنية العامة باعتبارها ملاجىء للطوارىء . وبعد ايام نقل اللاجئون الى مخيمات انشأتها الحكومة بمساعدة الاونروا في وادي الاردن الشرقي الذي تكتسحه الرمال والرياح الحارة .

لقد شوهت صور هؤلاء اللاجئين بطولات اسرائيل في الايام الستة من حزيران ، لان العالم بدأ يخشى ان يمنع هؤلاء من العودة الى بيوتهم كما حدث لمهاجري ١٩٤٨ .

في ٢ تموز تجاوبا مع الضغط من قبل بريطانيا واميركا — اللتين رأتا في مشكلة اللاجئين الجديدة عرقلة لتلك التسوية السلمية بين الاردن واسرائيل التي كان من المتوقع حصولها عاجلا في تلك الايام — اعلنت الحكومة الاسرائيلية ان سكان الضفة الغربية الذين فروا خلال حرب حزيران او بعدها يسمح لهم بالعودة على ان تقدم الطلبات العائلية الى الصليب الاحمر الدولي وهذا يرسلها الى اسرائيل ، فاذا لم تكن ثمة اعتراضات تتصل بالامن يسمح لهؤلاء بالعودة .

في اواخر آب خفت حدة حكاية اللاجئين الجدد . وحسب ما جاء على لسان عمان قدم اللاجئون ١٦٠،٠٠٠ طلب بواسطة الصليب الاحمر . ولكن بالنظر الى تحديد تاريخ ٣١ آب ١٩٦٧ من قبل اسرائيل لتقديم آخر الطلبات عاد فقط ١٤،٠٢٧ لاجئا . وكان هذا العدد اقل كثيرا مما كان ممكنا كما تبين . وبدت هذه النتائج تافهة واستلزمت وقتا طويلا في المعاملات مع ما ادعته اسرائيل ، في الاطوار الاولى من العملية ، من مماحكات اردنية حول العنوان الموضوع على صورة الطلبات المقدمة الى عمان .

وظهرت تفسيرات متناقضة في الصحافة الاسرائيلية : السلطات



ساحة اسرائيلية على انقاض اكثر من مئة بيت عربيّ

زاوية ابو سعود يطالها الهدم





البيت الوحيد الذي صمد

امام حائط المبكى

الاردنية أجبرت اللاجئين على توقيع الطلبات ، والـلاجئون انفسهم فضلوا البقاء في الضفة الشرقية ، او ان السلطات في عمان سعت لاستعمال هؤلاء اللاجئين الجدد كرهائن في لعبة ترمي الى الحصول على مساندة دولية ضد اسرائيل لذلك عطلت برنامج اعادة الـلاجئين الى بلدهم . لم يبد ذلك الوقت اي من هذه التأويلات معقولا . ولكن في آخر آب عندما تمكنت من مغادرة القدس لمدة وجيزة وذهبت جوا عن طريق بيروت الى عمان واجتمعت الى موظفي الوزارة والهلال الاحمر تبينت لي حقيقة ما جرى (كما لمح اليهـا موظفو الصليب الاحمر في القدس ، حتى الاسرائيليون انفسهم) .

حصل اول تـأخير في العودة حين رفضت اسرائيـل استعمال النموذج الدولي العادي للطلبات الذي يستعمله الصليب الاحمر والذي قبل به الاردن . وقالت اللجنة الاسرائيلية الموكلـة بشؤون العملية للصليب الاحمر انها تحتاج الى نموذج يتضمن المزيد من المعلومـات المفصلة . ولما قدم الاسرائيليون نموذجهم كانت تتوجه عبارة « حكومة اسرائيل » لذلك كان غير مقبول لدى الاردنيين . وبعد تأخير اخر اقترح الاردنيون نموذجا بمثابة تسوية للخـلاف توضع في اعـلاه عبارة : « حكومة اسرائيل » — « الصليب الاحمر الدولي » — « مملكة الاردن الهاشمية » وطبعا كان قبول الاردن بهذا النموذج متوقعا انما المسألة كـانت لماذا بدل الاسرائيليون عبـارة « الصليب الاحمر » الاصلية باسمهم .

حين وصلت النماذج المتفق عليها الى عمان اخيرا سجل موظفو الصليب الاحمر والموظفون الاردنيون اسماء اللاجئين الـذين ارادوا العودة وذلك باقصى سرعة ممكنة . وأكـد لي موظفو منظمة الامم والحكومة الاردنية انه لولا قرب موعد الانتهاء من التسجيل الذي حددته اسرائيل لتقارب عدد الذين سجلوا اسماءهم المئتي الالف . وعند نهاية البرنامج بلغ المسموح لهم بالعودة ١٨٢٣٦ (اسرائيـل اعطت الرقم ٢٠٦٥٨) . ومن هؤلاء عاد اقـل من ١٥٠٠٠ لان الاسرائيليين منحوا الافضلية لارباب وربات البيوت او الملاكين ، اي الاشخـاص الذين تشتتوا خلال وجودهم في الاردن باستئجارهم غرفا ومنازل للسكن في عمان والسلط واربد وكان من الصعب جدا اداريا الاتصال بهم وتسفيرهم ضمن الاربع والعشرين الساعة التي فرضتها اسرائيل أثر اعلانها عن قبولهم . وكان الاسرائيليون يقدمون لوائح يومية باسماء المقبولين في آخر طور من العملية .

حتى من هؤلاء المنتخبين كان الاسرائيليـون يعطون الاذن اكثر الاحيان لعدد من افراد العائلة التي تعتبر وحدة وليس لكل افرادها ، لذلك جازفت عائلات كثيرة بالتفرقة موقتا امـلا في ان يوضع بسرعة

برنامج « اعادة وحدة العائلة » فبقي في الاردن الاب او الابناء . والان هناك العديدون ممن لم يعودوا ما زالوا منقطعين عن عائلاتهم وباقين في الاردن او في مخيمات الضفة الشرقية . والوف غيرهم من الذين منحوا الاذونات المشروطة بعدم السماح لبعض افراد العائلة بالعودة ، رفضوا ان يعودوا ولم يرضوا بالتفرقة .

افاد موظفو « الاونروا » ان من بين جميع الذين عادوا كان ٤٠٠٠ شخص فقط مسجلين كلاجئين منذ حرب ١٩٤٨ . ولم يكن واحد من هذه الفئة في مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية . وكانت « الاونروا » مهتمة على الخصوص بان تعود هذه الفئة لان معظمهم كان من ساكني « مدن » المخيمات وليس لديهم موارد للارتزاق او مال او اقرباء او أية صلة بالضفة الشرقية . وبما انهم كانوا مجموعين في « مدن » المخيمات كانوا اسهل تسفيرا اداريا من غيرهم .

ولم يكن في لوائح تسجيل اسماء اللاجئين الذين أذن لهم بالعودة اسم شخص من سكان القدس العربية وبيت لحم مما اثبت صحـة التخوفات من النيات الاسرائيلية نحو اهالي المدينة العربية التي ضمت الى اسرائيل .

وكان مدير الجانب الاسرائيلي في العملية قد اخبر الصحافة انه بسبب عجز الاردنيين على اعادة الاشخاص يوما فيوما بحسب القوائم التي قدمتها اسرائيل يوميا قبل الموعد الاخير ، لم تهتم اسرائيل بمنح اذونات لعدد من الاشخاص الذين كانت طلباتهم قد ووفق عليها . وحين عدت الى القدس سألت هذا المدير عن عدد اللاجئين الاجمالي الذين قبلت طلباتهم ، سـواء اعطيت لهم الاذونات أو لم تعط ، فقال ان العدد بلغ ٢٥٠٠٠ ثم اثبت لي ان لاجئي ١٩٤٨ المسجلين والذين كـانوا في مخيمات الضفة الغربية قبل الحرب لم يعتبروا مؤهلين للعودة على الرغم من ان عددهم كان اكثر من ثلثي عدد اللاجئين الجدد ، ورفض ان يدلي بأية افادة بصدد العودة الى القدس (١).

ولم ينته سوء التفاهم . ولما اعلن الاسرائيليون برنامج العودة في ٣ تموز ١٩٦٧ اشترطوا ان كل عربي يختـار ان يعبر الى الضفة الشرقية بعد ٤ تموز ١٩٧٠ (الا اذا منح اذن سفر خصوصيا) يمنع من العودة . ومنذ ذلك لا اقل من ٢٠٠،٠٠٠ شخص اخرين من الضفة الغربية وغزه عبروا الى الضفة الشرقية ليضخموا عدد لاجئي حرب حزيران الى الاردن حتى بلغ ٤٠٠،٠٠٠ شخص . ولم يعلن حتى عن ١٢٠،٠٠٠ عربي من مرتفعات الجولان (كل سكان المنطقة تقريبـا)

---

(١) مهما تكن اللغة ديبلوماسية فان الحقائق عن هذه الفترة سجلت في تقرير المفوض العام لوكالة اونروا . ١ تموز ١٩٦٦ — ١٣ (١/٦٧١٣٠) .

الذين لجأوا الى المناطق السورية غير المحتلة . ولا اقل من ٤٠،٠٠٠ لاجىء من مدن شمال سيناء المحتلة الذين اما ارسلوا عبر القناة راسا الى مصر واما قطعوا نهـر الاردن وذهبوا عبر الجو الى القاهرة من عمان .

حاول الوف عدة من الضفة الغربية ان يعودوا بوسائلهم الخاصة في الاشهر الاولى بعد الحرب . فمن السهل في الصيف عبور نهر الاردن على الاقدام بقيادة رجال البدو من الوادي . يتم العبور بعد غروب الشمس ثم يمشون ساعات طويلة متجنبين الدوريات حتى يصلوا الى احدى المدن حيث يمكنهم الذهاب منها بالباصات الى نابلس او الخليل او الى القدس . والرجال الذين نجحوا في هذه المحاولة رووا قصصا مثيرة ، انما انتشرت شائعات بشعة عن وجود قبور جمة حفرها الجند الاسرائيليون على شاطىء الاردن ودفن فيها الذين لم ينجحوا في العبور .

في خريف تلك السنة نشر فريق من الطلاب الاسرائيليين اليساريين الجدد في جريدتهم العبرية السرية « نمعاس » (المتضايقة) بيانا عن وظيفة الحرس على نهر الاردن بقلم احتياطي مضطرب .

وبحسب قول رئيس تحرير الجريدة وافق جنود اخرون ، ما لم يستطع ذكر اسمائهم ، على صحة ما جاء في البيان . وهذا نصه :

« في كل ليلة يعبر النهر عدد من العرب من الشرق الى الغرب . وضعنا حواجز في الممرات (يعني الجهات حيث النهر قليل العمق وفي الامكان عبوره على الاقدام) وأمرنا بان نطلق النار على العابرين دون انذار ونقتلهم . وفعلا اطلقنا النار في كل ليلة على رجال ونساء واولاد ، حتى في الليالي المقمرة عندما كان في استطاعتنا ان نميز بين الرجال والنساء والاولاد . وفي الصباح كنا نفتش الناحية وبموجب امر صريح من الضابط الموجود في النقطة كنا نقتل الاحياء الذين اختبأوا والجرحى رميا بالرصاص . وكنـا بعد قتلهم نغطيهم بالتراب واحيانـا نتركهم منطرحين حتى تأتي الجرارات وتدفنهم .

« بعض هؤلاء كانوا عمال استخبارات وبعضهم متسللين مسلحين والبعض مهربين . انما اكثرهم كانوا من سكان الضفة الغربية السابقين الذين لم يمنحوا الاذن بالعودة . وهناك حوادث لا نقدر ان ننساها ابدا . في صباح احد الايام وجدنا رجلين غير مجروحين . امرنا الضابط بان نقتلهما فقتلناهما حيث كانا .

« مرة اخرى وجدنا رجلين مجروحين في افخاذهما . تكلمنا معهما واخذنا اوراقهما ثم امرنا الضابط بان نقتلهما . فهما من حركاتنا ما كان يجري فتضرعا الينا في يأس ان نبقي على حياتهما . غادرنا كلنا المكان الا واحد تطوع للقضاء عليهما . أضطر ان يطلق عليهما الرصاص ست مرات حتى ماتا .

« هناك قصص كثيرة . نحن نروي الحوادث التي شاهدناهـا باعيننا انما لدى غيرنا من الجنود قصص وافرة . وسمعنا عن جنود اشعلوا النار في اكوام من الجثث .

« في صباح أحد الايام وجدنا كومة من الجثث وبينها جثة فتاة . ومرة اخرى تضرع رجل من رجال فتح ان لا نقتله ولما وجد تضرعاته ذهبت عبثا لعننا واستقبل الرصاص . وفي احدى الليالي قطع فريق مؤلف من عشرين شخصا فاطلقنا عليهم النار وفي الصباح وجدنا احدى عشرة جثة . ووجدنا عددا منهم مختبئين وليسوا مصابين ، فقبضنا عليهم وارسلناهم الى الضفة الشرقية دون ان ننزل فيهم أذى .

« خلال خدمتنا مدة طويلة بعد الحرب كنا نطلق كل ليلة وكل ليلة كان يقتل ناس وكل صباح كان الجرحى يقتلون ، كذلك الذين قبض عليهم وليسوا مجروحين .

« انني افشي هذه المعلومات آملا ان تصل الى اكبر عدد من المواطنين الاسرائيليين . لعل البعض يقـدر بنفوذه ان يوقـف هذه الحوادث » .

لم تعرض اية مكتبة هذه الجريدة في واجهتها . ولما حاول المحررون ان يبيعوها في شوارع تل ابيب اوقفوا لتوزيعهم بيانات قذرة ردية (١) .

في اواخر شتاء ١٩٦٧ نقص عدد العرب الذين غـادروا الضفة الغربية كلاجئين نقصا كبيرا مفاجئا — ذلك بان معظم السكان قرروا ان لا يتخلوا عن الارض . حتى بين العائلات التي هدمت قوى الامن العام بيوتها « العقاب الجماعي » لقربها من الاماكن حيث جرت عمليات الفدائيين او لفسح المجال لاسكان اليهود في القدس العربية ، عائلات تشبثت برغبتها في الحفاظ على أرضها .

اما في غزة الملأى باللاجئين فان للاسرائيليين مطامح اعظم . واعلانهم في كـانون الثاني ١٩٦٨ ان لليهود الحق في مشترى ارض عربية في تلك الناحية « المستطيلة » جاء في وقت اشتدت فيه حملـة الارهاب الى اقصى درجة . وكان قبل شهر قد دعا ضباط من الجيش الاسرائيلي زعماء مخيمات اللاجئين في غزه الى اجتماع امروهم فيه ان يخرجوا اللاجئين من تلك الناحية ويقودوهم الى مخيمات « الاونروا » المهجورة في اريحا على الضفة الغربية . ولما رفض زعماء المخيمـات الاذعان بدأ الارهاب .

فرض فجأة منع التجول الشامل في مخيمات اللاجئين وانقطع عنها

---

(١) بعض الشبان الاسرائيليين الذين اشتركوا في تحرير الجريدة « نمعاس » ومع فريق ماتزبان قبض عليهم ثانية وحكم عليهم بالسجن ستة وثمانية اشهر في اواخر ١٩٦٨ لانهم كتبوا بالدهان عبارات ضد الاحتلال على جدار الكنيست .

الغذاء وغيره من الحاجات ثلاثة ايام في اوقات متفاوتة . وصار الانتقال داخل المخيمات محددا حتى ان احدا ما عاد يستطيع الخروج من بيته للذهاب الى المراحيض العمومية .

بضع مئات من مخيم الشاطىء اقتيدوا الى الشاطىء وقت منع التجول وأرغموا على ان ينبطحوا على حافته خلال اعصار دون طعام والرشاشات تهددهم الى ان بلغت مياه المد وسط اجسامهم .

طلب من زعماء المخيمات تقديم لوائح باسماء اللاجئين الذين لهم أقرباء في الدول العربية ولهم دخل مالي . ثم قبض على مئات العائلات التي وجدت اسماؤها في اللوائح ووضعت في سيارات شحن سارت بها الى نهر الاردن ومن هناك دفعت الى الضفة الشرقية وفقا لبرنامج معكوس يرمي الى « جمع شمل العائلات » بحسب الوعد الذي أعطي للاجئي الضفة الغربية .

عرض على مئات من شبان غزه الموقوفين بسبب الشبهة بهم الخيار بين السجن والنفي الى الاردن . كل عائلة قبلت بمغادرة الناحية منحت نقلا مجانيا وعلبة فيها طعام الغداء ومكافأة مالية بسيطة . وفي اواخر الشتاء والربيع من ١٩٦٨ عبر الالوف من سكان غزه جسر نهر الاردن نحو الاردن الى ان منعت سلطات عمان مجيء المزيد من اللاجئين القادمين من غزه . وهذا الاجراء بوشر تنفيذه أثر حدوث اصطدامين على الجسر مع الاسرائيليين . اكثر من ٥٠،٠٠٠ شخص من القاطنين في غزه أرغموا على مغادرة هذا القطاع .

وتكلم الاسرائيليون عن احتياطات امن لما باشروا حملتهم في غزه . ولكن في ذلك الوقت لم تكن المقاومة بعد عنيفة قدر ما كانت في معظم اجزاء الضفة الغربية خلال تلك الاشهر الاولى بعد الحرب . وكانت اعمال المقاومة تقتصر في الاكثر على قنبلة من وقت الى اخر على سيارة جيب اسرائيلية او لغم طريق دورية .

اخبر احد موظفي الاونروا ، ولا يريد ان يباح باسمه ، فريقا من المراسلين البريطانيين الذين زاروا غزه في اواخر كانون الاول ١٩٦٧ ان « الخطر الحقيقي الوحيد الذي تتعرض له حالة الامن في غزه مصدره المحاولة الوحشية التي اصر عليها الجيش الاسرائيلي لارغام هؤلاء الناس على مغادرة هذا القطاع » .

ان فرض منع التجول مدة خمسة ايام في الشاطىء وتحطيم زوارق صيد السمك والمستودعات بررهما انفجار زجاجة ببسي كولا محشوة بالديناميت قرب محلة السوق دون ان تحدث اصابات . والقيت في شارع في غزه فرقيعة من نافذة بيت على اسرائيليين كانوا مارين في الشارع فهدمت اربعة منازل سكن مباشرة . والمتفجرة التي انفجرت بين ايدي المعماريين في الجيش الاسرائيلي عرضا هدمت ثمانية منازل

اخرى .

غزه اليوم هي المركز الرئيسي للمقاومة المسلحة . فالمدينة المزدحمة بالسكان هي « كسبا » (قصبة) التحدي ، حيث الدوريات الاسرائيلية لا تجرؤ على المرور ضمنها الا في اقصى السرعة بسيارات الجيب . وفي الليل تصبح غزه مركزا للتحضير حيث الفدائيون ينظمون عمليات الكمين ويزرعون الالغام في الطرق التي يمر عليها الاسرائيليون . وغزه تغلي بالحقد على المحتلين . واذا سأل زائر اسرائيليا لماذا كل هذا الحقد يجيبه انه بسبب « عشرين سنة من الدعاية المصرية » .

طوال عشرين سنة وجد الغرب ان من الملائم قبول الادعاء الاسرائيلي أن يبقى لاجئو ١٩٤٨ في الحالة التي اختاروها لانفسهم ووفقا للتعليمات التي وجهتها اليهم الزعامة العربية حينذاك .

درس الكاتب البريطاني ارسكن تشيلدرس ادعاء اسرائيل هذا درسا جديرا بالاعتبار فوصفه في مقال نشرته جريدة « سبكتايتر » في عدد ١٢ ايار ١٩٦١ تحت عنوان « الخروج الاخر » . قضى تشيلدرس ربيع وصيف ١٩٤٨ في المتحف البريطاني يصغي الى اذاعة التسجيلات العربية التي اشرفت عليها محطة الاذاعة البريطانية وشركة اميركية . فكتب انه لم يسمع امرا واحدا او توسلا او اقتراحا وجهته اية محطة اذاعة عربية داخل فلسطين وخارجها الى الفلسطينيين في سنة ١٩٤٨ للجلاء عن البلد . وهناك تسجيل مراقب عن توسلات وحتى « اوامر صريحة للمدنيين في فلسطين ليبقوا فيها ولا يغادروها » . وكتب تشيلدرس ايضا انه في زيارة قام بها لاسرائيل طلب من السلطات ان تبرز اي برهان يدحض اقوال الاذاعات العربية في هذا الصدد فلم تفعل . والشذوذ الوحيد المدعوم بالمستندات الذي ظهر من الدراسات الاسرائيلية المعاكسة هو الجلاء عن حيفا على الرغم من التوسلات المخلصة ، كما ظهر ، التي وجهها رئيس البلدية اليهودي الى العرب ليبقوا .

لكن الذي لا يصدق ايضا هو القبول الواسع للافتراض القائل انه اذا صحت كذبة « الهرب الاختياري » فلا يبقى للفلسطينيين اي حق في ادعائهم ان البلد وطنهم .

في ١٩٦٧ — ١٩٦٨ جاء منع اسرائيل للفلسطينيين من العودة الى بيوتهم ، ليوضح كيف صار هذا الشعب في ١٩٤٨ شعبا لاجئا في الخارج وكيف حدد نضاله على نطاق اوسع كثيرا من نضاله السابق .



حفريات اسرائيلية

الصراع

جاء الفدائيون يملأون الفراغ ، يسابقون البدو وفرق « التنظيف » الاسرائيلية لوضع اليد على الاسلحة والذخائر المتروكة في سيناء والجولان .

اصبحت فلسطين كلها الان محتلة وتبددت مع هذا الاحتلال خرافة « حرب الانتقام » المنظمة التي طالما حالت بين انتشار شعبية الفدائيين بين الناس .

ففي ٢٠ حزيران ١٩٦٧ اجتمع ممثلون من فتح ، وجبهة تحرير فلسطين ، والجناحان الفلسطينيان في حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي وقرروا انشاء مكتب سري لتنسيق استئناف العمل الفدائي . ولكن بعد شهرين انسحب حزب البعث لينشىء حركته الفدائية الخاصة (١) .

واندمجت منظمتان فدائيتان — فتيان الانتقام وابطال العودة — التابعتان لحركة الفدائيين العرب مع جبهة التحرير الفلسطينية واتخذ الفريقان اسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، تزعم فيها احمد جبريل الجناح العسكري بينما تولت حركة القوميين العرب العمل السياسي .

---

(١) في مؤتمر حزبي عقد في ايلول ١٩٦٦ اعاد الجناح اليساري في حزب البعث (الحاكم انذاك في سوريا) تاكيده على مبدأ حرب التحرير الشعبية لاستعادة فلسطين . وعليه سمح للجناح الفلسطيني في الحزب انشاء فرق فدائية خاصة ، بينما بقيت الحكومة السورية تساعد المنظمات الفدائية الاخرى . وبدأ الفدائيون البعثيون الذي اصبحوا يعرفون بأسم منظمتهم العسكرية « الصاعقة » يقبلون المتطوعين ويدربونهم في ١٩٦٧ . ولكنهم لم يبدأوا العمل الفدائي الا بعد حرب حزيران . وبعد سنة ونصف السنة من حرب حزيران انشأ بعثيو العراق حركتهم الفدائية التي أصبحت تدعى « جبهة التحرير العربية » .

حفريات اسرائيلية في الزاوية الجنوبية الغربية من الحرم الشريف



الحفريات الاسرائيلية الاولى (١٩٦٨) الى جنوبي حائط الحرم وجنوب غربيه



وكان جبريل قد عارض وجهة فتح في استئناف العمل الفدائي حالا لانه كان يعتقد ان الخلايا السرية التي نظمت في الصيف الاول بعد الاحتلال لم تكن مستعدة ، كما لم تكن الفرق التي سترسل الى داخل الارض المحتلة قد استكملت تدريبها ، ولم تكن قد جمعت ايضا كميات كافية من الاسلحة ، لبدء عمليات غير ناضجة قـد تضر كثيرا حركـة المقاومة بكاملها .

وكان جبريل قد أمل من الاندماج في القوميين العرب استعمال خلايا هذه الحركة التي كانت قد انشئت قبل حرب حـزيران في غزة والضفة الغربية في عمليات جريئة لضرب مراكز في المدن .

ولكن عندما اعتقلت السلطات الاسرائيلية في اواخر صيف ١٩٦٧ عددا كبيرا من رجال المقاومـة شددت فتح على ضرورة بدء العمـل الفدائي فورا لان اسرائيل لن تنتظر استكمال تنظيم المقاومة لتضرب . وعندما بدأت فتح العمليات العسكرية تبعتها الجبهة الشعبية .

يمكن القول ان فتح والجبهة كانتا كـل على حق في رأيهما . فالعمل العسكري الذي قام به فدائيون فقيرو التدريب قاد الى تدمير سريع لقواعد الفدائيين وخلاياهم في الضفة الغربية في خريف ١٩٦٧ . وفي الشتاء كان الفريقان الفدائيان قد تراجعا الى الضفة الشرقية ليبدأا من هناك تخطيطا اكثر دقة لهجمات عبر نهر الاردن ، وكان في الوقت نفسه يجري من جديد بناء الخلايا في الارض المحتلة .

غير ان العمليات الاولية (رغم بدائيتها وخسائرهـا الكبيرة) نجحت في رفع وتقوية معنويات سكان الضفة الغربية . وكانت كأنهـا الرمال توضع داخل العجلات الاسرائيلية لتعيقها ولتدفـع النخبة في الضفة الغربية الى التعاون النشيط مع الفدائيين خلال الفترة الاولى من الاحتلال التي كانت نسبيا اكثر حرية من الفترات اللاحقة .

ان الانشقـاق الاول في الحركـة الفدائية اضر بالمنظمـات كثيرا . فعندما ملكت الحركة الفدائيـة شعـور وحماس الشعـب الفلسطيني بكامله وحماسته بعد اقل من سنة من حرب حزيران لم يكن ثمة جبهة موحدة للفدائيين تضم جميع الفلسطينيين وتستغل امكاناتهم . ففي صيف ١٩٦٨ كان في الميدان اكثر من عشرين منظمة فدائية .

وعلى الرغم من عمليات اندماج لاحقة ، فان جبهة النضال الشعبي ومنظمة العمل انشقتا عن فتح كما انقسمت الجبهة الشعبية الى أربع فرق . تخاصم احمد جبريل وجبهته مع حركة القوميين العرب وانسحب

من الجبهة لينشىء منظمته الخاصة (الجبهة الشعبية ــ القيادة العامة) . وبعدها انشق احمد زعرور ، وهو ضابط اردني سابق وواحد من افضل ضباط جبريل ، لينشىء المنظمة الفلسطينية العربية .

وفي ربيع ١٩٦٩ انشق فريق « يساري » عن حركة الفدائيين العرب الماركسية ــ اللينينية لينشىء لنفسه منظمة صغيرة ولكنها تضم عددا من المفكرين دعيت الجبهة الديمقراطية الشعبية . وعلى الرغم من كل هذه الانشقاقات ظلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ثاني اهم منظمة فدائية بعد فتح . وكان التأييد الشعبي يزداد لفكرة العمل الفدائي كلما ازدادت المنظمات ، اي منها وعلى الخصوص فتح ، قوة وحجما .

واصبحت مدن الخيام على ضفة الاردن التي استضافت اللاجئين الجدد بعد حرب حزيران الارض الخصبة لجمع المتطوعين للعمل الفدائي ، على الرغم من المضايقات التي كانت من وقت الى اخر تقوم بها قوات الامن الاردنية . ولكن بين شتاء واول ربيع ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ أصبحت مدن الخيام هذه مكانا صعبا على المدنيين البقاء فيه بعد أن ركزت على ضربها المدفعية الاسرائيلية . واعتبر الاسرائيليون انتقال اللاجئين من الضفة الى أماكن ابعد شرقا على المرتفعات المحيطة بعمان انتصارا . فكلما ابتعد الفدائيون ، في نظر الاسرائيليين ــ عن الارض المحتلة ــ كان ذلك افضل .

ولكن مع الفدائيين المبتعدين شرقا الى عمان واربد وجرش والزرقا نمت بذرة الصراع الفلسطيني لتقوي الشعور الشعبي من أجل النضال المسلح بين الفلسطينيين الذين اصبحوا الان الاكثرية بين سكان الضفة الشرقية .

وعندما استمرت نشاطات الفدائيين انذرت اسرائيل الملك حسين (الذي كان يتعرض للضغط من السفارات الغربية) بالحرب .

مخيم الكرامة ، البلدة التي هجرت بعد الضربات المتتالية التي وجهتها اليها النار الاسرائيلية ، كانت المنظمات الفدائية الثلاث فتح والجبهة الشعبية وقوات التحرير الشعبية تطلق منه رجالها في عمليات داخل الارض المحتلة . ومن اجل وقف هذه العمليات ارسلت قوات الامن الاردنية في شباط ١٩٦٨ ، رجالها لنزع السلاح من ايدي الفدائيين . ولكن عندما وصلت قوة الشرطة المؤلفة من البدو الى قلب الكرامة وجدت نفسها محاطة بقوات من المسلحين . وكانت هذه أول

مرة منذ عقدين يتحدى فيها الفلسطينيون البدو الذين انسحبوا دون اطلاق رصاصة واحدة . وكان يكفي للبدو في السابق ان يهددوا رجال المخيمات بطلقات قليلة من رشاش لتفريق اي تظاهرة او اعمال عنف .

وبدل الحسين موقفه ليمنع حدوث ازمة وزارية ولئلا يعكر صفو العلاقات المتحسنة منذ الحرب مع عبد الناصر (الذي كان يعتقد ان الفدائيين الضعيفي الصفوف حتى ذلك التاريخ يمكن استعمالهم في دفع اسرائيل الى الاسراع في القبول بتسوية معقولة) .

ولكن بعد شهر من هذا الحادث طوقت الدبابات الاردنية بقيادة العقيد جاسم القسوس الخمسمئة فدائي الذين يقيمون في الكرامة . وقرر قادة المنظمات الثلاث عرفات وجبريل وابو غربية ان اي اتصال بالحكومة الاردنية والمخيم مطوق سيفسره رجال القصر بانه علامة ضعف . لذلك قرروا المقاومة ووضعوا جميع المحاربين من المنظمات الثلاث بقيادة جبريل . وبدأ عدد كبير من الفدائيين حفر الخنادق على مرأى من رجال الدبابات بينما كان يتغلغل آخرون وراء الدبابات . وعندها خرج جبريل للقاء العقيد وضباطه .

كان بين ضباط العقيد القسوس عدد من الفلسطينيين . فوقف جبريل يشرح لهم مراحل القضية الفلسطينية مشيرا الى الدور الذي قام به الجيش الاردني طوال سنتين واتهم القسوس بأنه بتطويقه مخيم الكرامة انما يساعد الاسرائيليين ، وأعلمه ان دباباته اصبح يطوقها الفدائيون . ورد العقيد بهجوم كلامي على جبريل والفدائيين قائلا انهم كانوا السبب المباشر لحرب حزيران وانهم باعمالهم الحالية يعطون اسرائيل حجة لاحتلال الضفة الشرقية .

وبينما كان هذا الحوار قائما والذي حاول خلاله جبريل تضخيم عدد محاربيه لخدعة الاردنيين كان عدد من الفدائيين يقترب من الدبابات ويبدأ حوارامماثلا معرجال الجيش داعين اياهم الى التعاون مع المقاومة في محاربة اسرائيل . وانذر جبريل القائد الاردني انه اذا لم يسحب قواته خلال ١٢ ساعة فان الفدائيين سيهاجمون . وفي اليوم التالي انسحب القائد الاردني من الكرامة .

اصبح الان الجو خاليا لاسرائيل . وفي ساعات الصباح الاولى من ٢١ اذار ١٩٦٨ بدأت قوة اسرائيل مؤلفة من ثلاث فرق مدرعة (عدة الوف) تتحرك عبر نهر الاردن لتطوق القسم الشرقي من الوادي

قبل ان تتجه نحو مخيم الكرامة . وقامت الطائرات الاسرائيلية بضرب طرقات الوادي ونقط تجمع الفدائيين المشتبه بها . ورمت طائرات اخرى اوراقا مطبوعة موجهة الى الجنود الاردنيين تدعوهم فيها الى عدم التدخل فيما وصفته « بعملية بوليسية محدودة » ضد « الارهابيين » . وكانت قوات المدفعية والمدرعات الاردنية تتخذ لها مركزا في الوادي على شكل واسع . ولا يمكن والحالة هذه ان تدخل قوات اسرائيل (رغم ثقتها بنفسها التي كبرت اكثر من اللزوم في حرب حزيران) الى مكان مكشوف كهذا معرضة نفسها لولا ثقتها بأن القوات الاردنية ستتركها تدخل . وربما افترضت اسرائيل ان الاردنيين لن يعرضوا مدفعيتهم ودباباتهم لهجوم جوي .

وكان اكثر الفدائيين التابعين للجبهة الشعبية وقوات التحرير الفلسطينية قد انسحبوا من الكرامة ومراكز اخرى في الوادي قبل الهجوم واتخذوا لهم مواقع جديدة على التلال المطلة على شرقي المدينة. وتمكنت هذه القوات من ضرب المظليين الاسرائيليين الذين حملتهم الطائرات المروحية الى ما وراء الكرامة لاتمام عملية التطويق .

وبقي داخل الكرامة القسم الاكبر من فدائيي فتح ليواجهوا قوة اسرائيلية اكبر منهم . وكانوا في ذلك يخرقون اولى مبادىء حرب العصابات . الا أن قرار بقائهم كان قرارا مخططا له . فبعد عقدين من الهزمات قرر الفدائيون ان يثبتوا للعالم العربي وللجماهير الفلسطينية ان المحاربين العرب يمكنهم ان يحاربوا وان يصمدوا .

وبعد ان تغلبت القوة الاسرائيلية على الفدائيين نسفت مدرستي الكرامة كما نسفت الجامع ومحطة ضغط المياه ومجموعة ارواء الاراضي ومستودع الانروا .

ولكن عندما كانت الكرامة تسقط تكنيكيا كانت اسطورة تولد .

اما القوات الاردنية التي كانت تطل من مراكزها على الوادي فقد اطلقت مدفعيتها ودباباتها النار على الاسرائيليين . وكانت هذه القوات بقيادة قائد العمليات انذاك اللواء مشهور حديثه . ويقول الفدائيون ان حديثه تجاهل الاوامر التي لديه واطلق النار (١) .
وقد منعت النار الاردنية احدى القوى الاسرائيلية المهاجمة الثلاث من

---

(١) أحيل اللواء حديثه بعد حوادث أيلول ١٩٧٠ في الاردن على التقاعد . وكان قد سبقه الى التقاعد عدد من الضباط الصغار .

الوصول الى ارض المعركة .
وكانت اسرائيل قد حددت لسقوط الكرامة وانهاء المعركة الساعة
الحادية عشرة ، والانسحاب بعد الظهر . وكان في مخططها جلب
المراسلين الاجانب والصحافيين الاسرائيليين لزيارة المخيم المحتل ظهرا.
ولكن على الرغم من سقوط الكرامة ونشاط الطيران الاسرائيلي ظلت
المدفعية الاردنية تضرب الطرقات المؤدية الى الكرامة وبذلك لم يتمكن
الصحافيون من القيام بجولتهم الموعودة ، واخذوا بدل ذلك الى نقطة
مراقبة اسرائيلية تطل على الوادي تقع في الضفة الغربية .
وقد ظهر جليا لجميع الصحافيين الذين كانوا يقفون على تلك التلة
المطلة على جرش يراقبون الدخان يصعد وينزل على الضفة الشرقية
ان الضابط الاسرائيلي المكلف بشرح ما يجري كان لا يقل ارتباكا عنهم
حول مصير المعركة . في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ كان الاسرائيليون
يسمحون للمراسلين الاجانب بالتجول في مناطق القتال بحرية لكن في هذه
المرة اعادوهم الى السيارات الكبيرة التي ذهبت بهم الى القدس وتل
أبيب .

في الساعة الرابعة والنصف طلب الاسرائيليون بطرق
دبلوماسية وقف القتال . ولكن رائحة الانتصار كانت الان قد وصلت
حتى الى أكثر الانوف المترددة في القصر في عمان، فرفض الحسين طلب
اسرائيل . (زار الملك في اليوم الثاني أرض المعركة يصحبه الشريف
ناصر الذي يتهمه الفدائيون بانه المسؤول الاول عن محاولة ابقاء
القوات المسلحة خارج القتال) .
وكان ما تبقى لدى الاسرائيليين من امل لانقاذ ما يمكن انقاذه
من هذه العملية قد اضمحل في الساعات المتأخرة من بعد الظهر ومطلع
المساء عندما تحركت قوات فدائية اعيد تجميعها الى الوادي لتضع
الالغام على الطرقات ولتقيم مراكز قناصة ولتدخل الكرامة وتعمل في
مضايقة الاسرائيليين المنسحبين .
واجبرت النار الاردنية في الوقت نفسه الاسرائيليين على
الانسحاب ببطء . وكان الاسرائيليون يحاولون سحب معداتهم
المعطوبة ، وهو تقليد جرت عليه اسرائيل خلال قيامها بأعمال انتقامية ،
لكنها في هذه المرة اجبرت على ترك دباباتها المعطوبة وحاملات الجنود
وسيارات الشحن والجيب المكسرة في ارض المعركة . وقد عرضت هذه
المعدات على الجماهير الهاتفة فرحا في عمان في اليوم التالي .
صور هذه المعدات المحطمة ظهرت في جميع انحاء العالم العربي

كما ظهرت ــ عن طريق التلفزيون الاردني في المنازل الاسرائيلية .
وخلقت حالة نفسية جديدة .
وخلال أيام تطوع الوف الفلسطينيين الشباب في المنظمات الفدائية .
انها نقطة التحول في العمل الفدائي .

الخاتمة

دخلت الثورة بامكاناتها حلبة النزاع العربي الاسرائيلي أول مرة منذ أن كانت جماعات الفلاحين الفلسطينيين تهاجم منشآت الجيش البريطاني والمستعمرات الاسرائيلية في منتصف الثلاثينات .

وبدأ الشعور بكبر امكانات المقاومة المبنية على استراتيجية وتخطيط في العمق يسود صفوف الشعب وهو السلاح الاقوى في أيدي العرب والاقل استعمالا ، وشرع العالم العربي يقتنع بأن اية معركة حاسمة مع اسرائيل ستدور في شوارع دمشق وعمان ، حتى القاهرة ، بعدما عاش ما يزيد على عشرين عامافي اضغاث احلام لانتصار سهل ودون الم .

وساند الزعماء العرب هذا النضال على قدر ما انتظروا من حركة المقاومة أن تلد ضغطا كافيا على اسرائيل يجعلها تعرض عليهم حلا سلميا مقبولا (الانسحاب من الاراضي المحتلة ١٩٦٧) ، ثم حاولوا لجم المقاومة وتقييدها وشل حركتها ، على قدر ما كشفت هي للجماهير العربية من طاقاتها الثورية .

ومنذ صيف ١٩٧٠ ، عندما قبلت مصر مشروع روجرز كحل لمشكلة الشرق الاوسط ووافقت على وقف اطلاق النار وأنهت مساهمتها في حرب المقاومة على طول حدودها مع اسرائيل ، وكانت هذه المقاومة كلفت اسرائيل كثيرا ، تحول الموقف كليا ضد حركة المقاومة . ففي خريف ١٩٦٩ صرح دايان وزير الدفاع الاسرائيلي مرتكزا على احصاءات مشكوك في صحتها ان عدد الاصابات الاسرائيلية ارتفع من خمسين شهريا خلال السنة الاولى بعد حرب حزيران الى ١٥٧ خلال السنة الثالثة . وهذه النسبة توازي ، اذا ما قيست بعدد السكان ، خمسة عشر الف اصابة بين جريح وقتيل في صفوف الجيش الاميركي المحارب في فيتنام . وفي أيار ١٩٧٠ عشية بروز مشروع روجرز للسلام ارتفع عدد الاصابات المعترف بها رسميا في اسرائيل وتحدثت مجلتا « تايم » و« ونيوزويك » عن ازمة ثقة في قلب اسرائيل . وفي الاردن اشتد التناقض والنزاع بين العائلة المالكة وثورية الفدائيين في مجتمع يغلب عليه الطابع الفلسطيني .

ولما تحول تأييد المقاومة الى مناهضة ، هاجمت جيوش الهاشميين المقاومة الفلسطينية بضراوة ودقة لم يسبق ان ظهرتا من قبل في نزاعاتها المسلحة مع اسرائيل .

ان المقاومة الفلسطينية تناضل نضالا مستميتا في سبيل البقاء ، وسيقرر مستقبلها لا تمكنها فقط من التغلب على الخلافات الداخلية وتطوير استراتيجية صمودهما في وجه القمع الهاشمي بل تمكنها من قلب التيار المستفحل في العالم العربي المؤيد للاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة معا بغية ايجاد حل سلمي للخلاف مع اسرائيل .

ان الانظمة العربية أنظمة واقعية، كما انها لا تريد او لا تستطيع تجنيد شعوبها وتحميلها التضحيات التي يستلزمها نزاع طويل الامد مع اسرائيل يعرض حكمها وامتيازاتها للخطر . فالانظمة العربية لا تريد او لا تستطيع العمل خارج نطاق مساندة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . يجب القيام بعمل ما في سبيل حقوق الفلسطينيين بعد عشرين سنة من البلاغة والخطابة ، لكن هذه الحقوق شيء نظري قد يسوى على مر الوقت عن طريق تعويض سخي تقوم به مؤسسات دولية او عن طريق اعادة بعض عشرات الالوف الى ما هي اسرائيل اليوم وخلق دولة في غزه والضفة الغربية تستوعب من تبقى منهم وهم يفوقون المليون لاجيء . فالخلاف المصيري بين البلاد العربية واسرائيل هو خلاف جغرافي يدور حول الاراضي التي احتلتها اسرائيل في ١٩٦٧ ومنذ ذلك الوقت أثار الفريقان هذا الموضوع مرة تلو الاخرى كل من جهته، الاسرائيليون يطالبون بحدود آمنة ومعترف بها مما يوهم انهم من السذاجة بحيث يعتبرون بضعة أميال تضاف من هنا او هنالك مقياسا لعلاقة ثابتة وآمنة مع العالم العربي ، والعرب يشهرون بالمطامع التوسعية الاسرائيلية مما يوهم انهم قانعون بأن وجود دولة مستعمرة راضية بحدودها الاساسية لا يشكل خطرا على المنطقة .

وعلى أساس ما تقدم يعتبر الاسرائيليون نهر الاردن حدا آمنا ، ان لم يكن سياسيا ، على قواعدهم العسكرية في الضفة الغربية حمايته ، ويعتبرون ان من المستحيل عليهم التخلي عن المر في سيناء بين شرم الشيخ والعريش او عن مرتفعات الجولان في نطاق اي حل سلمي مع العرب . وعلى هذا الاساس ايضا يذكر العرب قيام اكثر من عشرين مستعمرة جديدة داخل الاراضي المحتلة والمشاريع السياحية التي تشاد في شرم الشيخ ويذكرون بالطبع استمرار الاسرائيليين في نزع الصفة العربية عن القدس . ولم يغب عن العرب أن اسرائيل سمت المقاطعات المحتلة أسماء جديدة ، فالضفة الغربية اصبحت اليهودية والسامرة ، وتيران اصبحت يوتقان ، وشرم الشيخ أصبح مفرانز شلوم ، وقامت الصحافة العربية تتكلم عن التوسع الاسرائيلي مرتكزة على مختارات من

تصاريح الساسة الاسرائيليين في اعمدة الصحافة العالمية . ومثال تقليدي على ذلك تصريح لدايان قال فيه :

« توصل آباؤنا الى حدود مشروع التقسيم وتوصلنا نحن الى حدود ١٩٤٩ ، وتوصل جيل حرب الستة الايام الى السويس ونهر الاردن ومرتفعات الجولان . وستكون لنا حدود جديدة بعد انتهاء وقف اطلاق النار تمتد ما وراء نهر الاردن وربما شملت لبنان وأواسط سوريا » .

وكما استعملت في الكتابات الاسرائيلية ما قبل حرب حزيران حجة سعي العرب الى محو اسرائيل كوسيلة لخلق غموض كثيف حول الموضوع الاساسي ، موضوع شعب مغتصب من المستعمرين يطالب بأراضيه ، كذلك تستعمل اليوم في الكتابات العربية الرسمية صورة اسرائيل مفترسة ضارية للاراضي العربية بغية خلق الغموض حول حقيقة الخلافات المتشعبة في الشرق الاوسط . فبعد حرب حزيران مباشرة ساد الراي العام الاسرائيلي اقتناع بقرب انهيار الزعامات المصرية والسورية والاردنية وبأن انكسار الجيوش العربية سيؤدي حتما الى انحلال ارادة المقاومة عند الفلسطينيين ، وبأن تسوية سلمية كاسحة ستوقع بالتأكيد مع الحسين وربما مع القيادات السورية والمصرية التي تلقت درسها او مع القيادات التي ستخلفها . ففي ذلك الحين ، وبقطع النظر عن الحاق القدس باسرائيل ، رفض ليفي اشكول ان يتخذ اكثر من الخطوات التقليدية الضرورية في حال احتلال أراض جديدة على الرغم من ضغوط التوسعيين المتطرفين داخل حكومة الائتلاف التي كان يرئسها آنذاك .وفي هذا الوقت بالذات، وقرب التسوية السلمية شيء واقع بالنسبة الى الاسرائيليين، اصر اشكول وحكومته على مباحثات مباشرة مع العرب فكان الرفض جواب العرب وخصوصا مصر .واصبحت التسوية موضوعا مرتقبا،وقبل الاسرائيليون الاشتراك في مباحثات غير مباشرة خلال فترات المفاوضة الاولى . كذلك صرح المصريون ، في صورة غير رسمية ، أنهم يقبلون بحل شبيه بحل ١٩٤٨ — ١٩٤٩ في رودس بالنسبة الى فترات المفاوضة النهائية . وحل رودس يقضي بأن يجتمع كل وفد على حدة في المكان ذاته ووسيط مقبول من الفريقين يضبط الاتصال بينهما . لكن الاصرار الرسمي الاسرائيلي على مباحثات مباشرة واصرار العرب الرسمي على عكس ذلك ليسا مجرد مكر وتهرب بل تعبير عن مبلغ التناقض بين الوجهتين حيال تسوية سلمية في الشرق الاوسط . ويلخص موقف اغلب الدول العربية منذ حزيران ٦٧ بأن التسوية من مجرد حدوث تبادل بسيط : انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة في مقابل تراجع العرب عن موقفهم المعادي لها والداعي الى محاربتها منذ ما يزيد على عشرين سنة .

وعندما قبلت مصر والاردن قرار مجلس الامن في ٢٢ تشرين الثاني

١٩٦٧ حدد هذا القرار دور العرب بانهاء حالة الحرب والاعتراف بسيادة اسرائيل وحدودها الاقليمية واستقلالها السياسي وحقها في العيش في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها ، كذلك ضمان حـرية الملاحة في الممرات الدولية في المنطقة والقبول بايجاد مناطق مجردة مـن السلاح ضمانا لامن اسرائيل من الناحية العسكرية . فلم يبق ، حيـال وجهة النظر العربية ، سوى قيام فريق ثالث سواء الدول الكبرى او وسيط دولي معين من الامم المتحدة ، بايجاد جدول زمني يتفق عليه الفريقان لتأمين الانسحاب الاسرائيلي وانهاء حالة الحـرب . وجميع التنازلات الدراماتيكية من قبل العرب منذ ذلك الحين، من تأكيدهم بأن من شروط السلام حرية مرور البواخر الاسرائيلية في قناة السويس ، الى قبولهم بتجريد شرم الشيخمن السلاحواخضاعه لرقابةدولية تأمينا لمرور البواخر الاسرائيلية في خليج العقبة، ان جميع هذهالتنازلات ما هي الا تعبير مربك يجسد قبول العرب قرارات مجلس الامن أو تراجع تكتيكيحول الاولويات بين الانسحاب ووقف حالة الحرب. ويعبر عن هذا القبول ايضا استعداد العرب لتوقيع معاهدة سلم ، وهو تنازل آخر ، وقبولهم البحث بمبدأ تسويات بسيطة حول الحدود في المباحثات المقبلة . وطلب العرب في مقابل ذلك قيام اسرائيل بخطوات تجسد استعدادهـا لقبول قرارات مجلس الامن حيال مبدأ عدم جواز الحصول على الاراضي بقوة السلاح، وطالبوا بانسحاب القوات الاسرائيلية من المناطق المحتلة خلال حرب حزيران . لكن الموقف الاسرائيلي كان دائما ان المباحثات حول حدود نهائية لاسرائيل محال فصلها عن المواضيع الاخرى بغية التوصل الى سلم دائم يمكن اسرائيل من العيش المطمئن . وهذا يعني انه كلما ازداد شعور الاسرائيليين بالامن والسلام نقصت حاجتهم الى الارض العربية المحتلة .

هنالك تناقض جلي بين كـلام زعماء اسرائيـل عن الاحتفاظ ، لا بالقدس المهوّدة فحسب بل ايضا بمرتفعات الجولان وشرم الشيخ وأجزاء من الضفة الغربية وغزه وبالممر من شرم الشيخ الى العريش ، وبين قبولهم الجلوس وجها لوجه مع العرب للمفاوضات دون اي قيد وشرط حول جميع المواضيع في سبيل التوصل الى سلم دائم . ان السلم عند الاسرائيليين ، كما أوضح ذلك ابا ايبن ، يعني المشاركة الاقليمية، اي حدودا مفتوحة للتبادل الثقافي والتجاري والسياحي والتوظيفات المالية كما يعني بالمعنى التقليدي الاعتراف الديبلوماسي والاقرار بالحدود . ان هذا النوع من الاتفاق ممكن التوصل اليه حول طاولة المفاوضات بين حليفين يثق احدهما بالاخر او بين امبراطورية مستعمرة وبلاد مستعمرة . انه ليس شرطا اساسيا للمفاوضة بل هـو تحديد اسرائيلي للهـدف الاساسي من وراء المفاوضات لا تريد اسرائيل الجهر به مخافة الرفض

العربي ، لكنه هو ما تريد التوصل اليه من خلال اصرارها على مفاوضات مباشرة غير مشروطة حول النزاع المزعوم الدائر حول الاراضي العربية المحتلة . ولطالما زعم الاسرائيليـون ان جلوس العرب الى طـاولة المفاوضات يكفي حتى يكتشفوا كرم اسرائيل . نعم يمكن اسرائيل ، اذا ما امنت لنفسها مشاركة اقليمية ممهورة بمعاهدة سلم ان تظهر كرمها في مواضيع تعويض اللاجئين ، والمساعدة الرمزية في اعادة بعضهم الى فلسطين واستقراره فيها ، وايجاد منافذ عربية على المتوسط ، والقيام بمشاريع تحلية المياه او بمشاريع على نهر الاردن ، تمامـا كما كانت الولايات المتحدة كريمة تجاه اميركا اللاتينية . وقد يصل الامر باسرائيل الى ان تتقدم بمشروع «محالفة من اجل السلام»، او حتى خلق « منظمة سلام يهودية » . واذا ما وجد في التاريخ مثال للعلاقات المرتقبة بين اسرائيل والعرب فهو مثال العلاقات بين الاميركتين : مجتمع مستعمر اوروبي في الشمال حرم سكان البلاد الاصليين حقوقهم الطبيعيه وحطمهم وانتقل من بعد الى جنوب متخلف مكون من مجتمعات هندية الاصل وحطمها الاستعمار كذلك ، فأقام عليها انظمة عسكرية غـير ثابتة او حكومات أقليات (اوليغاركيات) صغيرة ، وفي أحسن الاحتمالات زعامات وطنية واهية تجاوبت قدر المستطاع مع مفهوم اقليمي لقومية قائمة على لغة وحضارة مشتركتين . « ان ما نطمح اليه في علاقاتنا مع العرب ليس من نوع العلاقات القائمة بين لبنان وسوريا بل العلاقات القائمة بين الولايات المتحدة الاميركية واميركا اللاتينية على التبادل الاقتصادي ومن خلال فوارق تاريخية ولغوية وثقافية »، قال ابا ايبن من صوت اسرائيل.

ان مظاهر القوة ليست محدودة بوضوح في الشرق الاوسط ، واسرائيل تعوزها الموارد الطبيعية والاسواق الواسعة وكلها بدأت الولايات المتحدة بها قبل توسعها جنوبا . ان مدخول الفرد في اسرائيل يبلغ ثلاثة اضعاف ما يبلغه مدخول الفرد في البلاد المجاورة لها ويوازي مدخول الفرد في ايطاليا او بلجيكا ولكن دون الانتاجية الصناعية التي في اي بلد اوروبي .

وانها لظاهرة اصطناعية في اقتصاد يقوم مدخوله الاساسي على السياحة وتصدير الحمضيات واعادة تصدير الماس المصنع. ان الاعانات الاميركية والتعويضات الالمانية ولا سيما مصادر التمويل التي تمد بها اليهودية الغربية والاميركية اسرائيل بصورة هبات واعانات وتوظيف راس مال ، تغمـر الهوة بين اقتصاد تقني حديث وانتاجية صناعية ضعيفة . عندما كان على اسرائيل ان تؤمن المسكن لموجات الهجرة المتدفقة عليها كانت تتمتع بازدهار ونمـو ، ولو قصيري الامد ، تبني خلالهما مدنها المتطورة من اجل العمال المتعطلين في المستقبل .

فعند وقوع الحرب تنشط القاعدة الاقتصاديـة فتنتج ، وتظهر

حيوية جديدة في وضع اقتصادي يكون نائما كما تهب مؤسسات جمع التبرعات ما وراء البحار شهورا بل سنوات .

ان سلاما تقليديا معقولا ينهي حالة الحرب القائمة ولا يضمن وصول اسرائيل الى الاسواق والموارد الطبيعية العربية المجاورة يعني حتما موت نظرية « القلعة المهددة » التي من خلالها يحفظ الاسرائيليون وحدتهم الداخلية ويبتزون موارد عيشهم من أموال اليهودية العالمية دون ان يكون التوسع الاقتصادي المحلي ضروريا ليعوضهم من خسارة أموال تأتيهم من الخارج .

وهذا هو السلام التقليدي الذي رفضه دايان في اوائل كانون الثاني ١٩٦٩ ووصفه بحالة « عدم حرب غير مقبولة » واستطرد في خشونة انه لن يكون صلح مع العرب دون تجارة معهم . وهذا ايضا ما عنته غولدا مئير رئيسة الحكومة عندما قالت ان وجود السلام في الشرق الاوسط يعني انها تستطيع قيادة سيارتها من تل ابيب الى القاهرة لتبتاع ما تحتاج اليه .

ذلك ان اسرائيل عكس اميركا القرن التاسع عشر لا أمل لها في ان تصبح دولة صناعية ما لم تحقق ما يعادل امبراطورية عصرية . والتبجح بالكيان الاسرائيلي والمهارات الجاهزة ومصادر راس المال الواسعة ما وراء البحار ، كل هذه لا تعني شيئا من الناحية الاقتصادية ما لم تعط فرصة اغراق البورجوازية العربية المتخلفة في نطاق مشاركة اقليمية .

ان المقاطعة الاسرائيلية الصامتة لمنتوجات الضفة الغربية في الوقت الذي غمرت المنتوجات الاسرائيلية رفوف محلات بيع المفرق في الضفة الغربية بدلا من المنتوجات الممنوع استيرادها ، ثم التأخر المتواصل في الصناعة العربية المحلية حيال هذه الاجراءات التنافسية وغيرها من الاجراءات الماثلة ، تثبت ان مفوضي الدعاية الاسرائيلية خابوا عندما قالوا بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة بتعاون يهودي عربي في الاراضي المحتلة يكون مثالا مشرقا لامكانات التعاون في المنطقة بأسرها . وتمثل المشاركة الاقليمية ايضا الفرصة الوحيدة لحل مشكلة اسرائيل المزدوجة ، الهجرة والعمل . ان اقتصادا اسرائيليا صناعيا ديناميا متوسعا ينتج لاسواق الشرق الاوسط ويوظف امواله فيها يعني ان حوالي خمسين الف مهني ماهر واداري اوروبي الطراز هاجروا من اسرائيل في الحولين الاخيرين لعدم وجود عمل او لاجور اكثر اغراء ، تصبح في امكانهم العودة الى اسرائيل . ويعني ذلك ايضا ان حلم الصهاينة بهجرة يهودية من اميركا وانكلترا واوروبا الغربية وجنوبي افريقيا ، وهو حلم لا امل له ان يتحقق اليوم نظرا الى تدني مستوى الحياة وفقدان الامن قد يصبح امكانا معقولا . وفي الوقت ذاته تسد اسرائيل حاجتها الى اليد العاملة غير

المحترفة من خزانات البلاد العربية المجاورة الواسعة . فمنذ حرب حزيران استخدمت اسرائيل بأجور منخفضة عشرات الوف العمال العرب من غزه والقدس العربية في مزارعها ومصانعها وورش البناء والطرق وفي أعمال مختلفة ، وأفضى ذلك الى قيام طبقة جديدة من بروليتارية وطنية ضمن دولة مستعمرة .

كتب أبا ايبن : « ان ارض اسرائيل صغيرة الحجم لكنها مركزية بصورة مدهشة ونقطة نموذجية للمواصلات . لنتصور الطرق والسكك الحديد متفرعة من حيفا الى بيروت ودمشق واسطنبول شمالا والى عمان وما وراءها شرقا والى القاهرة جنوبا. ان فتح هذه الشرايين المسدودة ينشط الحياة والفكر والتجارة في المنطقة الى حد لا يتصوره العقل » . ان ما يعتبر اليوم اسفينا في قلب البلاد العربية سيصبح جسرا فيما بينها . وكتب يوجين روستو مقالة حول الشرق الاوسط في سنة ١٩٦٨ وفيها نعت الشرق الاوسط بمنطقة الوعد :

« ان العرب في جهودهم من اجل التطور في منطقتهم ، لا يجدون شركاء أفضل من الاسرائيليين أبناء عمومتهم القدماء الذين جاهدوا قرونا طويلة للمحافظة على ثقافتهم وتطويرها بمقتضى مستلزمات الحياة العصرية » .

قلت لديبلوماسي اميركي ، بعد صدور مقال روستو بوقت قصير : « ان نظرة هذا الاخير الى الاقليمية تعني حتما خسارة اميركا الاسواق العربية لمصلحة اسرائيل » ، فوافقني وقال ان حصة اميركا من الاسواق العربية في انخفاض ، على كل حال، في وجه المضاربة اليابانية والاوروبية الشرقية وان الشرق العربي يمثل جزءا ضئيلا من الاسواق الخارجية حيث تباع المنتوجات الاميركية . واذا كانت التضحية بالسوق العربية ثمنا للاستقرار في المنطقة فهذا الثمن عادل .

ان الاستقرار في المنطقة يعني في الاصل المحافظة على المصالح الاميركية في استغلال النفط العربي والحفاظ على الانظمة التي تتقبل هذا الوضع . وان دور اسرائيل المرتقب والمخطط له في الشرق الاوسط شبيه بالدور الذي وضعته الولايات المتحدة لليابان في جنوبي شرقي آسيا، دور البوليس والشريك المفضل للصناعة الغربية .

ولكن فات الديبلوماسي القول ان دور اميركا الحالي وامكانات التوظيف حاليا ومستقبلا في اسرائيل تمكنها من انتاج بضائع رخيصة الثمن نظرا الى انخفاض اجور العمال والشحن في اطار مشاركة اقليمية ، فتطغى على كل مضاربة داخل الاسواق العربية .

وعندما قابل بوب شير من مجلة « رامبارت » ابا ايبن بعد حرب حزيران ، صدمه اكتشافه ان وزير خارجية اسرائيل الاشتراكي لا يعتبر سيطرة راس المال الاجنبي على النمط العربي ضربا من الاستعمار .

وكانت مشكلة شير عجزه الشخصي عن تفهم رأس المـــال الاجنبي او المطامع الامبريالية الا من خلال المفهوم الرسمي الاميركي الواضح بينما امتاز مفهوم ايبن بالتسامح حيال الرجال الطامحين. واذا عنى هذا الكلام للبعض حديثا عن « امبراطورية » فالاسرائيليون يفهمون الصفقة بصورة مختلفة . وهم يتساءلون : ما معنى قيامنا بتضحيات اساسية ، اذا لم يفض الى سلم حقيقي ، أي شراكة اقليمية ؟

ويصعب علينا قبول هذا المفهوم للتضحية او الخسارة ما لم ندرك ان اسرائيل منذ البدء حالة فكرية تتبدل دائما بمقتضى الواقعية وتفرض نفسها على الواقع المتبدل، كما هي في الوقت ذاته دولة تقليدية لها حدود ثابتة وعضوية في الامم المتحدة .

منذ خمس وسبعين سنة ، اذ كانت فلسطين جزءا عربيا ناعسا من المقاطعة السورية في الامبراطورية العثمانية ، كانت اسرائيل وجودا ايديولوجيا في ادمغة المجموعات الصهيونية المنتشرة في اوروبا . وعندما أعطي هذا الوجود ارادة وظروفا مؤاتية تحول الى شكله الجزئي من دولة اسرائيل العتيدة لبناء دولة اسرائيل في جزء مـــن ارض اسرائيل التاريخية . ويرد هذا في أي نص صهيوني قياسي .

قد يعني « التاريخ » هنا ما ورد في التوراة عن وعد الله ذرية ابراهيم بفلسطين او عن حدود مملكة داود المبهمة . وعلى كل حال يبدو ان الوعد شمل اجزاء كبرى اضافية من الاراضي العربية وعلى وجه التأكيد فلسطين الانتداب بما فيها الضفة الغربية وبعض مـا تبقى من الضفة الشرقية مضافا اليها اجزاء من لبنان وسوريا . ويشمل كذلك قسما غير محدد من سيناء ، هذا اذا استندنا الى الحدود التي طالب بها الوفد الصهيوني الى مباحثات السلام في باريس ١٩١٩ .

ان هذه النظرة لارض اسرائيل تختلف عن حـدود مشروع تقسيم ١٩٤٧ وتختلف حتى عن حدود ما قبل حزيران وهي التي تراود مخيلات صانعي العقيدة الصهيونية وتعـود لازمة في جميع خطابات الزعمـاء الاسرائيليين حتى وهم يتظاهرون بمقاومة المطالبة بأراض اضافية .

ان المطامع الاقليمية والخلافات السياسية الداخلية ، منذ سعي هرتزل للقيام بصفقته مع الخليفة في اسطنبول ، مرورا بوعـد بلفور وبمشروع الامم المتحدة للتقسيم ، ومرورا بحملة ١٩٥٦ على سينـاء والسويس ، عملت دوما على نحو خلاق داخـل حقل من التوتر تحده مستلزمات السياسة الواقعية والمصدر الايديولوجي النهائي .

ويدرك الاسرائيليون ان السلم الدائـم مع البلاد العربية يعني الرجوع النهائي عن هذه النظرة الاقليمية ، وهذا ما يعنون « بالتضحية الاساسية » .

ان التوترات الداخلية في اسرائيل وخصوصا بين اشكول ودايان او

بين الحكومة ككل والجماعات التي تجاهـر بالتوسع « كحركة ارض اسرائيل الكبرى » تعكس حصول ضغوط شديدة كلما سنح مجال التقدم ولو قليلا نحو تسوية سلمية ذات معنى . وهذه الحركات التي تدعو الى الاحتفاظ الدائم بجميع الاراضي العربية المحتلة حديثا ، تتمتع على مـا يبدو ، بتأييد الجماهير الاسرائيلية . كما ان اكثر الصحافة الاسرائيلية، تشير اليها من بعيد ولكن باحترام ظاهـر . وهي تشحـذ الحساسية الاسرائيلية نحو المصدر الايديولوجي في وجه المقاومة العربية المزدادة عنفا ، تماما كما فعل الراي العام الاسرائيلي في انتخابات ما بعد الحرب اذ ابرز دايان فجأة فوق جميع المرشحين لرئاسة الحكومة .

اما الاحزاب الدينية والحركات التوسعية التقليدية التي طالبت بكل فلسطين وشرق الاردن قبل الحرب الاخيرة بعشرات السنين ، فان العهد الذي قطعته للاحتفاظ بكـل شيء الى الابد يتخذ شكل الطقوس الدينية .

« ان ما اعطانا اياه الله لا يحق لاي يهودي ان يعيده » ، هذا ما صرح به حاخام مشهور في باب الاعلانات في صحيفـة اسرائيلية . وفي رسالة اكثر نموذجية من حيث الاسلوب كتبت طالبة اسرائيلية الى مجلة كانت تقوم ببحث حول تسوية سلمية : « اذا كان لا حق لنا في الجليل او جرش فأي حق لنا في حيفا او عكا » ؟.

وعندما يفرق بعض المراقبين الغربيين المتحررين بين « الحمائم والصقور» الاسرائيليين فهم لا يفهمون التناقض المزدوج الذي في اسرائيل ظنا ان فريقا من الاسرائيليين يريد احتلال مزيد من الاراضي بينما يصبو فريق الى السلم . لنتصور عوضا من كل ذلك ، بتشبيه بلدي ، نخبة عالية الثقافة من الاسرائيليين كل رجل من افرادها يحمل ميزانا رمزيا كفة منه تقول بالحقوق التاريخية المكتسبة او مزيدا من الارض وكفة تقول بالمشاركة الاقليمية . الكفة الاولى مثقلة بغنائم الحرب ماضيـا وحاضرا ومستقبلا والثانية تحمل معاهدة صلح موقعة تؤدي الى فتح الحدود والوصول الى الاسواق العربية ومواردها والى فرص التوظيف المالي ، وضمنها ابا ايبن نقاطه التسع المذكورة في خطابه بعد الحرب عن « رؤيا السلام » في الامم المتحدة .

كانت الخلافات داخل اسرائيل تدور دائما حول الطريقة الفضلى لفهم هذا الميزان ومعالجته .

والمستغرب ان معظم زعماء العرب لا يفهمون معنى هذا كله . ان النخبة العربية لا تستطيع او لا تريد ان تفهم ان الوجود الاسرائيلي والمصالح الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ، تدوم وتبقى بفضل الدينامية وسرعة التحرك الاسرائيليتين سواء أعيدت الارض العربية او لا ، وان دمج غزه في الاقتصاد الاسرائيلي اكثر اهمية من معرفة هل تبقى غزه في

أيدي اسرائيل او تعطى للاردن او تربط بالضفة الغربية كقسم من الدولة الفلسطينية المصغرة . والشيء نفسه يقال عن الضفة الغربية .

ان المشكل الاهم حيال ايجاد تسوية هو ، دون شك ، موضوع القدس العربية . وان عمق الخلاف حول وضع هذه المدينة العظيمة الاساسي يكفي لاحباط عزائم جميع القوى الساعية لخلق الاستقرار في الشرق الاوسط . وتجدر الملاحظة ان جميع محبذي التسوية الذين يصرون على رفض واقع القدس العربية الحالي ، من كتاب عرب وغربيين ، متفقون على وجوب الضغط الشديد على اسرائيل بغية تأمين وضع جديد للقدس ، ايا كان . وسواء أكان الحل البديل تدويل المدينة او الاشتراك في حكمها او اعادتها الى السيطرة العربية ، او اي خليط من هذه جميعاً ، فان وحدة القسمين العربي والاسرائيلي سوف تدوم بسبب حرية المرور والخدمات البلدية الموحدة .

ولو سلمنا جدلا بقبول اسرائيل القيام بهذه التضحية الصعبة فان طبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية بين دولة اردنية مربوطة بمعاهدة او دولة فلسطينية وبين اسرائيل ، بالاضافة الى التغير السريع في وضع السكان العرب في القدس العربية ، سوف تثبت ان لهذه العلاقات تأثيرا في تحديد معالم شخصية القدس العربية بقدر ما كان للاحتلال الاسرائيلي الرسمي.

انها الكبرياء وليس الذكاء التي انقذت النخبة العربية وانقذت الشعب بكامله من تسوية سلمية تعادل العبودية الاقتصادية والثقافية في اميركا اللاتينية . وسواء استمدت هذه الكبرياء وجودها من فضائل الصحراء العجيبة او من قومية عضوية خاصة بالعالم الثالث التقدمي ، فهي بدأت تضعف وتتلاشى .

ان النخبة العربية تتوق يائسة نحو التسوية لانها فاقدة النشاط والطموح التاريخي والثقة بنفسها وشعبها لتدرك وجود حل بديل. عندما يقول ابا ايبن بالمشاركة الاقليمية تصمت الصحافة العربية ولا تجيب اما عن عدم فهم لما يقصد واما عن عدم اكتراث ، وتعتبر ما يقول مجرد تنميق كلامي وليس هو الامر الخطير والهدف الحقيقي الذي تسعى له اسرائيل .

ان النخبة العربية لا تفهم كذلك كنه رؤيا روستو وثوريات نيكسون عندما يتحدث عن « سلام اكثر شمولا من سلام الورق » ، وتسودها الحيرة تجاه معرفة ما تريده اميركا حقا . لكن البعض يدرك ويستعد للمشاركة في الارباح والاسلاب ، لو اتيحت له الفرصة .